

مذاهب وشخصيات



شخصیات مشہورہ و مغمورہ

بقلم
رکستور جمال الدین الرمادی



مذاهب و شخصيات

شخصيات مشهورة ومغمورة

بقلم
الدكتور جمال الدين الداوي

مقدمة

لمحات من حياة المشاهير

من منن الله على خلقه أن جعل لكل امرئ موهبة خاصة ، وميلا ظاهرا يمتاز بهما على غيره ويتفوق بهما على سواه ، وكثيرا ما تتجلى أمارات هذه الموهبة ، وتترأى علامات هذا الميل منذ الطفولة ، وبذلك قسم علماء النفس الميول قسمين هما : ميول فطرية وميول مكتسبة ، والميول الفطرية هي التي تنشأ مع الانسان منذ الصغر ، وتنمو معه على مر الايام ، أما الميول المكتسبة فهي تلك التي يكتسبها الانسان من البيئة المحيطة به ومن قراءاته واستعداداته ، وتجاربته ، واشتراكه في معترك الحياة .

وكثيرا ما تبرز تلك المواهب منذ الطفولة ، وتتفتح براعمها عند الشباب اذا وجدت أرضا خصبة وتشجيعا وتأيدا ، فتشرق وتزهر ، وتنبت من كل زوج بهيج ، وزد على ذلك أن المثابرة في سبيل النجاح من أهم العوامل على بلوغه ، ولنا من تاريخ العلماء والأدباء والمفكرين أمثلة كثيرة تؤيد هذا الرأي كل التأيد .

فالمفكر الفرنسي الشهير فولتير كان منذ نعومة أظفاره يعيل الى الكتابة والاطلاع وحفظ قصائد قصيرة وهو في الثالثة من عمره ، وكتب تراجيدا وهو في الثانية عشرة من عمره ولكنها لم تظفر بأعجابه فأحرقها بعد ان مزق أصولها شرمزق . وقد تجلت مواهبه في أثناء دراسته في اللغة والأدب ولما بلغ السابعة عشرة عكف على دراسة القانون ولولا مثابرته على الدرس ما ترك لنا هذا التراث الفكري الخالد الذي كان دستورنا من دساتير الثورة الكبرى في فرنسا .

وقل مثل ذلك عن العالم المعروف اسحق نيوتن مكتشف نظرية الجاذبية والتي قدر العلماء قوته العقلية بمائة وسبعين درجة بما يزيد سبعين درجة على متوسط ذكاء الفرد العادي ، فقد كان منذ نعومة أظفاره يعيل الى دراسة الميكانيكا والى صنع بعض الآلات ، فصنع ساعة مائية ، وطاحونة هوائية ، وعربة ذات محرك في سيرها ، ولولا نزاعه مع أحد أصدقائه ومحاولة التفوق عليه ، ومثابرته على الكفاح ما اعتدى الى نظرية الجاذبية التي كان لها أثر خطير في الميدان العلمي .

بل إن هؤلاء العباقرة الذين خلدهم التاريخ بأعمالهم لم يولدوا في أفواههم ملائق من ذهب - كما يقولون - إنما جاهدوا وثابروا حتى أدركوا الغاية من كفاحهم وجهادهم .

ومثال ذلك الزعيم العظيم جورج واشنطن ، فقد ولد في واشنطن عام ١٧٣٢ من أبوين فقيرين ، ومات أبوه وهو في الحادية عشرة من عمره فكفلته أمه ، ثم اشتغل مساحا بولاية فرجينيا ، وقام بمسح الارض في الاحراج والغابات ، وكان يلقى صنوف المشقة في سبيل ذلك ثم انتهى به المطاف الى العمل في فرقة الملبشيا برتبة صاغ « ماجور » وأظهر في أثناء خدمته جلدا عظيما ومثابرة فائقة للدرجة أنه قام برحلة شديدة الخطورة عبر الصحراء والمجاهل والاحراج في شتاء قارس البرد ، هائج العواصف حتى يقدم احتجاجا رسميا على بعض الاعمال الحربية .

وأظهر واشنطن بسالة منقطعة النظر في معركة التحرير حتى انتخبة الكونجرس الامريكى لقيادة الجيش الامريكى الجديد .

ولما أقر الدستور اختاره الشعب أول رئيس للجمهورية الجديدة وارفع ابن الشعب نتيجة كفاحه ومثابرته الى كرسي الرئاسة ..

واذا انتقلنا مع عالم السياسة الى عالم الادب وجدنا أدبيا كبيرا مثل كارل ساندبرج نشأ فقيرا ، وعمل وهو في الثالثة من عمره على مساعدة أسرته المكونة من تسعة أفراد ببيع الصحف ، وجر عربات الابلان ، حتى اذا مل هذا العمل اشتغل صيبيا بـ« كان حلاق » ، ثم عمل في القطر الامريكى المسافرة الى الغرب كحامل للبضائع والحقائب . وقام بفصل الاطباق في الفنادق بمدينة ويومنچ وبنراكس وغيرهما . ولكنه كان في أثناء هذا كله يثابر على القراءة والاطلاع دون سأم أو ملل حتى أخرج للناس اضعف ترجمة لحياة ابراهام لنكولن في مجلد من ستة أجزاء كما أخرج للناس مجموعة رقيقة من الشعر ظهرت في ديوان يدعى أطلق عليه « قصائد شيكاغو » ، ونشر بعد ذلك سبعة أجزاء من الديوان ، وترجمة ضافية لحياته ، ومجموعتين من الاغاني الشعبية وغيرهما من الآثار الادبية التى خللت اسمه فى سماء الادب والتاريخ .

وقل مثل ذلك عن الشاعر الامريكى الكبير « روبرت فروست » الذى ظل يتنقل بين الحرف ليعول نفسه ، فكان صيبيا فى مصنع ، ثم كان مدرسا ، ثم محررا باحدى الصحف الاقليمية ، وظل يثابر وينتج للناس اروع الآثار الادبية حتى اختير أخيرا مستشارا لمكتبة الكونجرس لشئون الشعر الانجليزى ومنح جائزة « بولترز » للشعر أربع مرات وجائزة « لنفيسون » وجائزة « راسل ليونز » التذكارية والمالية الذهبية من « المعهد القومى للفنون والآداب وميدالية روزفلت وغير ذلك من الجوائز والميداليات .

وغنى عن البيان أنه لولا مثابرته (روبرت فروست) على القراءة والاطلاع وتنمية مواهبه الفنية ما استطاع أن يدرك هذه المنزلة العظيمة من التقدير ..

ولا أظن أن أحدا لا يقدر ذلك الصبى الصغير الذى كان يعيش مع بعض الاصدقاء فى لندن فى حجرة مظلمة تؤويه فى احدى الصيدليات ليصق بطاقات الادوية على الزجاجات ويقضى نهاره كله فى هذا العمل

دون أن يشبع رغبته الادبية التي حال فقر والديه واقبال كاهلها
بالديون دون تحقيقها .

ولكن الظروف المواتية قيضت له من ظفر منه بكلمات التشجيع
وهو أحد أصدقاء والده ، فشجعه أن يكتب ويكتب دون أن يفتر عزمه ،
ولولا مثابرته هو نفسه في هذا الميدان ما استطاع أن يصل الى أوج الشهرة
والمجد .

لم يكن هذا الصبي الا الكاتب الذائع الصيت « تشارلز ديكنز »
Charles Dickens الذي عزفت الصحف عن نشر قصصه ومقالاته في
باديء الامر ، فلم يجد غضاضة في الاستمرار على الكتابة ، وانتهى به
المطاف الى أن ارسل قصة لاحد الناشرين فقبل نشرها بعد أن ارسل له
كتاب شكر وتقدير ، ومنذ ذلك الوقت عكف الفتى على الكتابة وترك
مخزن الادوية الذي يعمل فيه ، وطفقت كتبه تنشر في كل مكان وقترجم
الى مختلف اللغات لقوة أفكارها ، ومتانة موضوعها .

وكذلك كان حال الكاتب العظيم هـ . ج . ويلز H. G. Wells
الذي كان يعمل كعامل بسيط في متجر لبيع الاقمشة ، وكان عليه أن
يسير كل يوم على قدمه ميلين أو أكثر حتى يصل الى هذا المتجر ، ومثل ذلك
في المساء . حتى دب اليأس في نفسه ، اذ كان يتناول نظير هذا التعب
الشديد ؛ وهذا النصب المضني العنيف أجرا ضئيلا لا يسمن ولا يغني
من جوع . ويظل في عمله حتى ساعة متأخرة من الليل ، ولا يعرف طعم
الراحة حتى يعود الى البيت . فصمم « ويلز » على الانتحار وأرسل الى
أمه فكتبت اليه تقول :

« لقد تركت يابني مرحلة الطفولة ودخلت مرحلة الشباب ، وأعتقد
أن لك من العقل ما يصونك من خطر التفكير ، فافعل ما تشاء » .

ولكن نفسه كانت لاتزال عزيزة عليه ، فلم يقدم على الانتحار
وأرسل الى أستاذ له خطابا يبيته فيه شكواه ، وبلواه ، فما كان من هذا
الأستاذ الا أن أرسل اليه يشجعه ويدفعه الى الامام ويعرض عليه في
ختام الرسالة أن يعمل كمدرس في إحدى المدارس ، وكانت هذه هي
نقطة التحول في حياة هـ . ج . ويلز ، ومنذ ذلك التاريخ أقدم على البحث
والدراسة حتى ظفر بالاستاذية ، وبلغ مجموع ما أنتجه من الكتب ٧٧
كتابا أكسبته أكثر من مليون جنيه .

تلك هي لحظات من حياة العباقرة ومنها تتبين أن مواهبهم لم تخرج
الى النور الا بعد أن سمعوا كلمات التشجيع تلقى اليهم ، وقرن في
سماعهم ، فخرجت كنوز العبقرية الى دنيا الوجود ، ولذلك كان لزاما
علينا ألا تسخر مواهب الشباب وأن نشجعهم ونحاول أن نوجههم الوجهة
الصحيحة ، ومن يدرى ربما يكون بين الشباب من يكون عبقريا عظيما
كهؤلاء ؟

ولكن لا يغرب عن البال أن التشجيع لا يمكن أن يؤتي ثمرته في
الارض المجردة القاحلة ولا بد أن تصاحبه المثابرة والجهد ، فالعزيمة

القوية تستطيع أن تغل الحديد ، والارادة الصارمة تستطيع أن تدرك المطالب
دون صعوبة أو عسر .

وفى هذا المعنى يقول البروفسور (وليم جيمس) : : لكى تستطيع
أن تهدي الناس الى الطريق القويم وهو طريق المجد والخلود ، عليك أن
تقدر مجهوداتهم وتثنى على نجاحهم مهما كان تأقها لان هذا يدفعهم الى
الإمام .. غير أنه لابد من المثابرة فيدون المثابرة .. تنصب الكلمات
هباء .. ،

وما أجدرنا كمبرين أن نتأمل هذا القول ، فرب كلمة تشجيع تخلق
من التلميذ شخصا يقدر المسئولية .

ويغبط كثير من الناس تلك الاسماء الالامعة التى تتألق فى سماء
الصحافة من المشاهير ويعتقدون أن أصحابها أدركوا توفيقهم فى عالم
الصحافة بضمن بخس وأن الصحافة مهنة سهلة يسيرة يستطيع أن يقتحم
أيوبها كل من هز البراع ، والواقع أن المهنة الصحفية على النقيض من
ذلك تحتاج الى استعداد عظيم ومواهب فذة ، وليس الصحفي بالرجل
ذى الاسلوب الرشيق والالفاظ الطنانة والعبارات المنضودة كالآلى ،
فقد انقضى ذلك العهد وولى الادبار !

صحيح أن الرجل هو الاسلوب كما يقول الناقد الفرنسى بوفون
والصحفى هو الاسلوب كذلك ، ولكن ينبغى لنا أن نفرق بين أسلوب
واسلوب ، وكذلك ينبغى لنا أن نفرق بين الاسلوب اللغوى ومعناه
الفنى .

حقا يتطلب من الصحفي أن يكون فصيح العبارة حلو الاشارة
يجرى أسلوبه على ما اتفق من قواعد النحو والصرف ولكن الاسلوب
الصحفى يتمثل فى صياغة الخبر وعرض المقال وابداء الرأى وإظهار
الحجة وإخراج الجريدة ، ويقدر ما أوتى الصحفي من مقدرة فى هدم
الجوانب يكون موفقا فى حياته الصحفية .

وليس الصحافة تجارة ، وليس الصحفي هو الموفق الى الربح من
هذه التجارة ، انما هى فن أولا وقبل كل شئ ومن الناحية المادية ليست
الا ضرورة تحتمها ظروف الحياة . وقد كتب السير فيلبس جيبس فصلا
عن الصحافة ذكر فيه أن الصحفي الموفق هو الذى يضع العمل أولا ويفكر
فى الثمن ثانيا .

والصحافة عمل متواصل لا يعرف الكلال ولا الملل ، ويتطلب
أعصابا قوية وصبرا واحتمالا وبقظة وانتباها ، والصحفى الموفق من عرفه
كل ذلك وراعى كل ذلك وتحرى الدقة فى الاخبار والقدرة على المصادر
والتعدد فى المراجع والا كان مصير جريدته الخراب .

والصحفى الموفق هو من ينسى ذاته فى سبيل جريدته ، فيتلون
بلونها ويسمع بأذنها ، وينظر بعينها ، ويتكلم بلسانها ويشعر

بمسئولياتها ، وقد صرح اللورد مورلاى فى أحد المؤتمرات الصحفية أن الصحفي ليس خادما فى مكتب ، بل هو مدير الأفكار بوجه عام .

وقد ذكر الرئيس روزفلت فى اجتماع صحفى أن الصحفي الموفق خادم عمومى يشعر بالمسئولية للملقة على عاتقه فقال ما نصه : « طالما كنت أقول لرجال الصحافة ان فى أيديهم سلاحا من أحد الاسلحة فى العصر الحديث ومن اللازم أن يستختموه لاهداف حسنة لا لاغراض سيئة فمحرر الجريدة ومراسلها فى هذا الزمان خادمان عامان ، والصحفى الموفق من يشعر تماما بالمسئولية فى عمله ، كما أشعر بالمسئولية فى رئاسة جمهورية الولايات المتحدة الامريكىه » .

وانى اذكر أن المغفور له « انطون الجميل باشا » سئل يوما ما عن جوهر الصحافة فأجاب انه قائم على ثلاثة اشياء حسن النية والخبرة والمقدرة ، فسئل : من الصحفي الموفق ؟ فقال : « انه هو من يستفيد من قراءة كتاب التاريخ فان فصوله مفصلة الصفحات والكتاب الموفق هو من لتسعت مداركه وامتدت قراءاته ولم يكن من قراء الكتاب الواحد كالمثل اللاتينى » .

والواقع أن (انطون الجميل) قد أصاب لب الحقيقة فالصحافة صاحبة جلاله والصحافى سواء كان قائد الرأى العام أم لم يكن . ليس واحدا من حكام العالم كما تساهل كارليل الكاتب الانجيزى المشهور ، فيجب أن يكون الصحفي واسع الافق متفتح المدارك كثير الاطلاع على بيئة من التيارات الفكرية والادبية والعلمية والاجتماعية المعاصرة وغير المعاصرة : اذا ضمه مجلس من رجال الادب استطاع أن يصول فيه وأن يجول ، واذا خالط رجال القانون استطاع أن يناقش وأن يعارض ، واذا تحدث الى رجال الطب استطاع أن يفهم وأن يستوعب ، وصديق جديون حين قال : « أوتر ميل للاطلاع على جميع كنوز الهند » .

وقد قال أحد علماء الاجتماع : ان الله يوجه الشعوب عن طريق بعض أفرادها ، فاذا سلك هؤلاء الأفراد سيرة البر والخير ملكت شعوبهم طريق البر والسلام ، وهكذا اذا سارت الصحافة سيرة قومية معتدلة فاصلة قادت الأمة الى شاطئ الامان والسلام .

وقد لعبت الصحافة فى الحرب العالمية الأولى والحرب الكبرى الأخيرة دورا هاما كبيرا ، وكان لها أثر فعال فى تحطيم اعصاب الشعوب المعادية ورفع الروح المعنوية للشعب ، ويمتد « ماك آرثر » صحة اثر الحرب السيكلوجية فى الحصول على النصر فى الحرب الأخيرة ، وليس من شك فى أن الصحافة الموفقة والاذاعة الموفقة قد ساهمتا بنصيب كبير لاجراز هذا النصر ، فكانت تطبع طبعا خاصة لبلاد الأعداء وتحاول بكل ما أوتيت من جهد أن تفت فى عضدها .

وقد فطن الامبراطور نابليون العظيم الى فائدة الصحافة فى الحروب فأنشأ ادارة خاصة لها ، كما أن هتلر حاول من جانبه كل المحاولات الممكنة نشر عقيدته عن طريق الصحافة ، وبذلت كل من وزارة الامستعلامات

الامريكية والبريطانية ما تستطيع بل ما لا تستطيع من جهد في سبيل نشر دعايتها عن طريق الصحافة الموقفة . وما أروع قول أحد الكتاب الصحفيين أذ يقول :

« ان الصحافة غير التجارة أو الحياكة أو الخياطة لتكون رهن ادارة (الزبائن) في شكل ما يطلبونه من الأدوات أو الاثواب حتى النجار أو الحائك اذا رأى (زبونه) على ضلال أرشده الى الصواب وبين له خطأه في طلبه بحالة من الاختبار في صناعته ، فكيف بالصحافة وهي مدرسة تعليم وارشاد ، واصحابها أساتذة الأمة وقادة أفكارها ؟ »

فالكتاب الحر يدعو الى الحرية في الرأي والاستقلال في المبدأ ويعتقد أن الصحافة مدرسة كبيرة في هذا المضمار لأنها تهذب الشعب وتعلمه ، فنحن في حاجة الى استقلال في الفكر والاستقلال في العمل لكيلا نكون عبيثا على الحكومة ، وقد ركن الكاتب يوسف الخازن سبب توفيق جرجي زيدان في حياته الصحفية في قوله :

« كان سبب نجاحه الباهر حسن الادارة واختيار المباحث وسهولة الادارة وينطوي فيها أمور كثيرة مادية وادارية كضبط المواعيد وحسن الطاعة واتقان الوجه التجارى وحفظ الملازمة بين واجبات الصحفي وميول الجماهير، وكان رحمه الله - على حد تعبير نجله الكريم اميل زيدان أن يقبل النصائح والارشادات فضلا أن يجعل سلوكه الصحفي مثلا لاولاده ونعم المثال ، وكان لا يسأم الكتابة ولا يسأم القراءة ينهب فرائدها ويغتم فوائدها غير محدود له طمع ... »

فالصحفي الموفق اذن من لا يسأم القراءة والكتابة ويجد فيها راحة بعد عناء وسعادة بعد شقاء ، وقد نصح أحد الكتاب الصحفيين الأوروبيين لمن يهوى الصحافة والكتابة قال : « اذا نازعتك نفسك يا بني في حب الصحافة والكتابة فاستيقظ والناس نيام وقد سكنت حركة الأحياء والاشياء ، وسائل نفسك : هل تؤثر النوم أو الكتابة ؟ »

فان أجابتك نفسك الى الكتابة فانت فتى موهوب ، فالصحافة مجد ونصب وعرق ودم ودموع ... »

وفي الصفحات القادرة تقدم طائفة من أقطاب العلم والأدب والفكر في الشرق والغرب بعضهم من المشهورين وبعضهم من المغمورين وبعضهم احتل ذكركم المجلدات الضخمة من الكتب والصفحات الممتلئة من الصحف ، وبعضهم لم يكن له نصيب يذكر من الشهرة والذيع .

ونرجو أن يجد القارئ في هذه التراجم المقبلة متعة نحرص عليها ونهدف إليها وعلى الله قصد السبيل .

الأعشى

جاء في سيرة ابن هشام أنه هو ميمون بن قيس بن جندل بن شرحبيل ابن عوف بن سعد ، من بكر بن وائل من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان ، وهو شاعر عربي ولد قبل الهجرة في العصر الجاهلي ، ويعرف بالأعشى الأكبر وذلك لتمييزه عن غيره من الشعراء الذين يحملون هذا الاسم ، ويكنى هذا الشاعر بأبي بصير ، وهذه الكنية هي المشهورة ، وورد اسمه في كتاب شعراء الجاهلية مقرونا بكنية أبي بصير ، ويطلق عليه أبو الفرج الاصفهاني في كتاب الاغانى « اعشى بنى تغلب » ..

ولقب الشاعر « بالأعشى » لضعف بصره ، وقد وصفه شريح بن السموءل حين أنقذه من الاسر بالأسير المضروب ، وروى ابن قتيبة أنه كان أعمى ويظهر أنه أصيب بالعمى في أواخر حياته ، والدليل على ذلك قوله في إحدى قصائده :

على أنها إذ رأتني أقا د قالت بما قد أراه بصيرا

وذبح المستشرق « هيفنز » الى أنه سمي بـ « الأعشى » لأن هذه الكلمة وردت في شعره . كما كان يطلق عليه (صناعية العرب) لفخامة شعره وجزالته ، ولما كان يحدثه من الجلبة الموسيقية ، اذ كان يترنم به صاحبه أو يتناقله المغنون .

وروى أبو الفرج الاصفهاني أن الأعشى تزوج امرأة من قبيلة (عنزة) من هزان ، فلم يرتج الى الحياة معها ؛ ولم يستحسن أخلاقها فطلقها ؛ وقال في ذلك شعرا منه هذه الآيات :

فبيتي حصان الفرج غير ذمية ومروقة فينا كذاك وواقعه
ويا جارتا بيني فانك طالقة كذاك أمور الناس غاد وطارقة

ويستنتج من شعر الأعشى أنه كان له ابن يقود بعيره في أسفاره ، كما كانت له ابنة يعرض عليها شعره ، اذ كان قد ثقها وعلمها ما بلغت به استحقاق التحكيم والاختيار لجيد الكلام على حد تعبير الاصفهاني .

وقد نشأ الأعشى في قرية تسمى « منفوحة » في اليمامة غير أنه قام بعد ذلك بأسفار كثيرة وأشار هو نفسه الى هذه الاسفار في شعره

وطولت المال آفاقه عمان فحمص فاورشليم
اتيت النجاشي في داره وارض النبط وارض العجم

كما قال كذلك في قصيدة أخرى :

قد جبت ما بين بانقيا الى عدن و طال في العجم تردادي وتسياري
وكان تطوافه سببا في كثرة معارفه ومعة ثقافته ، اتصل بنصاري
نجران وباهل الحيرة ، وشريح بن السموم اليهودي صاحب تيماء ، بخصنه
الذي يقال له (الأبلق) الى غير ذلك . وكان ينهب كل سنة الى سوق عكاظ
في الجزيرة العربية حيث ينشد أشعاره ويلتف حوله كثير من المعجبين .
وقد منحه أحد الولاة مائة من الابل وكساء حللا وأعطاه كرشا مدبوغة
مملوءة عنبرا وقال له : اياك أن تخدع عما فيها ، وفي هذا يقول (الأعشى) ،
« فاتيت بها الحيرة فبعيتها بثلاثمائة ناقة حمراء .. »

واتصل الأعشى بالنعمان بن المنذر ملك الحيرة ومدحه ببعض عيون
شعره ومن ذلك قوله المشهور :

أنت خير من ألف ألف من النا س اذا ما كسيت وجوه الرجال
وأعجب النعمان بشعره فقال له يوما : لعلك تستعيد على شعرك ؟
قال :

أحسنى في بيت حتى أقول ، فحبسه النعمان فأنشأ الأعشى القصيدة
التي مطلعها :

أأزمت من آل ليلى ابتكارا وشطت على ذى هوى أن تزار
ونظم الأعشى في الاسود بن المنذر أخى النعمان كذلك جملة من القصائد
أشهرها تلك اللامية التي عندها أكثر الادباء معلقته :

ما بكاء الكبير بالاطلال وهزل إلى وما ترد سؤالي ؟

كما اتصل الأعشى كذلك بملوك نجران أصحاب الدير العظيم المزين
بالفسيفساء وكثير من الزخارف وحوله الاشجار والغدران .

ويمتاز شعر الأعشى بمعارفه الواسعة وثقافته الكبيرة ، واستخدام بعض
الالفاظ الفارسية التي عرفها في أثناء رحلاته الطويلة الى الحيرة ومحاو لها
من البلاد ، كما وصف سيل العرم والقصر الأبلق على ما يرويه أهل
عصره ، وامتاز بأكثاره من وصف الخمر وما اليها من تديم ومساق وقينة
وعود ، واستخدم الأوزان الخفيفة ، أطال في قصائده اطالة لم توهن من
أسلوبه أو تقل من قيمته ، واستخدم القصص في شعره على النحو الذي
فعله امرؤ القيس الشاعر أمير كندة فذكر قصة السموم بن عادياء مع
امرئ القيس ، وذكر قصة حبس النعمان بن المنذر بساباط ثم قتله تحت
أرجل الفيل بأمر كسرى أبرويز ، ونظم الشعر في الغزل حتى انه استهل

جميع قصائده بهذا اللون من الفن الذى فشا حتى فى قصائد الهجاء ، وتارة يتغنى بهريرة التى شبيب بها فى مطلع لاميته :

ودع هريرة ان الركب مرتحل وحل تطبيق وداعا ايها الرجل ؟
ونظم الاعشى بعض قصائده فى الحكمة ، كما كانت تأتى عرضا فى بعض قصائده ومثال ذلك قوله :
ولست بالاكتر منهم حصى وانما العزرة للكثير
وقوله كذلك :

وفى ذلك ما يستفيد الفتى واى لعمري لا يلاقى الشرورا
وقال بالشعبى : الاعشى أغزل الناس فى بيت وأخنتهم فى بيت وأشجعهم فى بيت ، فلما سئل عن هذه الابيات قال : ان أغزل بيت هو :

غراء فرعاء مصقول عوارضها تمشى الهوينى كما يمشى الوجى الوحل
وأما أخنت بيت فهو قوله :
قالت هريرة لما جئت زائرها ويل عليك وويل منك يا رجل
وأما أشجع بيت فهو :

قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا أو تنزلون فانا معشر نزل
وأقبل مروان بن أبى حفصة الشاعر العباسى على يونس النحوى وعرض عليه بعض شعره فأعجب به وقال : انت أشعر من الأعشى ، فقال مروان : لقد سؤتني اذ قمتني عليه !

أما أبو الفرج الاصفهاني فقد عده فى كتاب الاغانى أحد الاعلام من شعراء الجاهلية وفحولهم وتقدم على سائرهم كما ذكر المرزبانى فى كتابه « الموشح » : سئل الاصمعى عنه : أفحل هو ؟ قال : لا ليس بفحل . قاله المرزبانى : يعنى لا مزية له على غيره .

ودخل الاخطل على عبد الملك بن مروان وقد شرب خمرا وعنده الشعبى فلما رآه قال يا شعبى . . . غلب الاخطل الشعراء جميعا حين قال :

وتظل تنصفنا بها قروية أبريقها برقاعة ملثوم
فاذا تماورت الاكف زجاجها نغمت فشم رياحها المزكوم
فقال الاخطل : سمعت بمثل هذا يا شعبى ؟ فقال اذا أمنتك فاشعر منك الذى يقول :

من اللانى حملن على المطايا كريح المسك تستل الزكاما

فقال الاخطل : ويحك ... ومن يقول هذا ؟ قلت الاعشى : أعشى
بنى قيس بن ثعلبة فقال : قدوس قدوس غلب الاعشى الشعراء جميعا .

وهكذا اختلفت آراء النقاد ازاء شعره ، بيد أن الاعشى في الواقع
يعتبر من أبرع الشعراء في العصر الجاهلي واعتبره أبو عبيدة من أصحاب
المعلقات وجعله الرابع بينهم . بل لقد ظل محافظا على مكانته الأدبية حتى
بعد ظهور الاسلام ، اذ روى أبو الفرج الاصفهاني أن حسانا سئل من
أشعر الناس ؟ فقال : أشاعر بعينه ؟ قال : بل قبيلة .. قال : الزرق من
بنى قيس بن ثعلبة . وروى أيضا أن رجلا من بني كلاب خرج يختال
وينسأدى من يفاخرني ، ومن ينافرنى ببني عامر بن صعصعة فرسانا
وشعراء وعددا وفعلا ؟ فأجابه رجل : أنا . قال بمن ؟ قال ببني قيس بن
ثعلبة . فولى الأول هاربا . وقد كان الاعشى على رأسهم « أي بني قيس بن
ثعلبة » .

وخافت قريش اسلام الاعشى ، وكان ذلك قبل فتح مكة ، فقال له
أبو سفيان وهو في طريقه الى الرسول الكريم : « نحن وهو في هدنة
فتأخذ مائة من الابل ، وترجع الى بلدك سنتك هذه ، وتنظر ما يصير
اليه امرنا ، فإن ظهرنا عليه كنت قد أخذت خلفا وإن ظهر علينا آتية » .

فأخذ مائة من الابل وقفل واجعا الى أهله ، فالتقاء بعيره قريبا من قريته
فقتل عام ٧ هـ ، ٦٢٩ م نتيجة لمؤامره وهياجه وعدم تمكن الاعشى من
التحكم في عنانه . وكان قد أعد قصيدة في مدح الرسول صلى الله عليه
وسلم جاء فيها :

ألم تفتح عيناك ليلة أرمدا وعادك ما عاد السليم المسهدا
كما جاء فيها :

فأليت لا أرى لها من كلاله ولا من حفي حتى تلاقي محمدا
نبي يرى مالا ترون وذكره أغار لعمري في البلاد وأنجدا
ويظهر أن الاعشى كان يطمح في عطايا الرسول الكريم ، اذ صرح في
آخر مدحته بحبه للمال وحاجته الى الحصول عليه فقال :

ومازلت أبغى المال مذ أنا يافع وليدا وكهلا حين شبت وأمردا
وللاعشى مطولتان اختلف النقاد في اختيار المعلقة منهما . وهاتان
المطولتان هما مطولة :

ودع هريرة ان الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل
والأخرى :

ما بكاء الكبير في الاطلال وسؤالي وما يرد سؤالي؟

ويقول ابن النديم في الفهرست: ان للاعشى ديوانا كبيرة أكثره في المدح
يتخلله شيء من الغزل والخمريات جمعه وشرحه أبو العباس ثعلب . وقد
قللت قصائد وأبيات كثيرة منه في كتب الأدب المختلفة ونشر المستشرق

الفرنسي « دى ساسي » لامية الاعشى السابقة في باريس عام ١٨٢٦ ، كما نشر المستشرق « جاير » قصيدة « ودع هريرة » عام ١٨٧٥ في مدينة « ليبسك » ، ونشر « ثوربكه » القصيدة الدالية في مدح النبي ضمن مجموعة نشرها في ليبسك أيضا عام ١٨٧٥ ، ونشر ديوان الاعشى عام ١٢٨ في مجموعة المستشرق جيب تحت عنوان « الصبح المنير في شعر أبي بصير » في مدينة فينا .

وللديوان طبعة قديمة قام بها جماعة من العلماء وصدرت عن مطبعة التقلع .

ونشر أبو زيد القرشي في كتابه « جوهرة أشعار العرب » مجموعة من شعره كما أورد ابن قتيبة في الشعر والشعراء بعضا من شعره ، وكذلك فعل عبد القادر البغدادي في خزانة الادب وأبو الفرج الاصفهاني في الاغانى، والأب لويس شيخو في كتاب « شعراء النصرانية » بيروت عام ١٨٩٠ .

ولعل خير ما نختتم به هذا البحث أن نردد ما ذكره عبد الملك بن مروان المؤدب ابنه « أدبهم برواية شعر الاعشى ، فإنه - قاتله الله - ما كان أعذب يحره ، وأصلب صخره ! »

أمامه بنت الحارث

أمامة بنت الحارث سيدة من أكرم السيدات في الجاهلية ، وأعلنهن منزلة - وأرفعهن ذكرا ، فقد اشتهرت قبل الاسلام بعلو كعبها في العلم والأدب ، وكانت فضلا عن هذا سيدة حسيمة الرأي ثاقبة الفكر تعرف واجبات الأسرة حق المعرفة ، وتعرف حقوق كل فرد فيها ودعائم سعادتها وهناتها وأسباب اضطرابها وشقائها وعوامل خيرها ورغائها ، ودوائ شرها ومنفصاتها .

وقد تزوجت ابنتها أم إياس الحارث بن عمرو أحد سادات العرب فنصحتها نصيحة ثمينة غالية قبل أن تنهب إلى زوجها تعد من أروع ما قيل في نصيح العروس قبل زفافها ، وقد جمعت في نصيحها بين جودة العبارة ودقة الدراسة ، وعمق الفكرة . وتعتبر نصيحتها ثمرة تجارب طويلة وخلاصة حال سعيدة عاشتها أمها مع زوجها عوف الشيباني أحد كبار قبيلة شيبان في الجاهلية .

ومما قالته أمامة بنت الحارث في هذه النصيحة قولها : « أي بنية ان الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك ، ولكنها تذكرة للغافل وممونة للعاقل » وتشير في ذلك إلى أن النصيحة لو كانت للتوجيه إلى الأدب لكانت ابنتها أخرى الناس بعلم الاستماع إليها لأنها وبيبة الأدب والخلق ، ولكنها تذكرة لها على ذلك . ثم قالت أمامة : ولو أن امرأة استفتت عن الزوج لفنى أبوها وشدة حاجتهما إليها لكتنت أغنى الناس ، ولكن النساء للرجال خلقن ، ولهن خلق الرجال » .

ففي الوقت الذي تشيد فيه أمامة بكرم أصل ابنتها وراثتها تشيد بحاجة المرأة إلى الرجل التي خلقت له وخلق لها .

وتستطرد أمامة بنت الحارث قائلة : أي بنية انك فارقت الجو الذي فيه خرجت وخلقت العش الذي منه درجت إلى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيقا فكوني له أمة يكن لك عبدا .

وتمضى أمامة بنت الحارث تنصح لابنتها قائلة : « يا بنية ، احمل عني عشر خصال تكن لك ذخرا وذكرى : « الصعوبة بالقناعة والمعاونة بحسن السمع والطاعة - والتمهيد لموقع عيتيه والتفقد لموضع أنفه - فلا تقع عينه منك عمل قبيح - ولا يشم منك إلا أطيب ريح ، والكحل أحسن الحسن ،

والماء أطيب الطيب المفقود . والتفقد لوقت طعامه والهدوء عنه عند منامه ،
فان حرارة الجوع منهية ، وتنقيص النوم مفضية ، والاحتفاظ ببيته وماله ،
والارعاء على نفسه وعياله ، فان الاحتفاظ بالمال حسن التقدير ، والارعاء
على الأعيال والجنتم حسن التدبير .

ولا تفشى له سرا ، ولا تعصى له أمرا فانك ان أفشيت سره ، لم تأمنى
غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره .

وفي هذه الفقرة تشير أمامة الى وجوب قناعة الزوجة بمعيشه زوجها ،
وطاعة أوامره وإجابة مطالبه ، وضرورة العناية بنظافتها ونظافة بيتها ،
والاهتمام بزینتها وطيبها ورعاية الزوج في طعامه وشرابه ، والإشراف على
أبنائه وتوجيه خدمه ، وعدم الاسراف والتبذير وعدم افشاء أسرارهم أو
عصيان أمرهم مما يترتب عليه عواقب وخيمة تهدد الحياة الزوجية
السعيدة .

وتختتم أمامة بنت الحارث نصيحتها لابنتها بقولها : « اتقى مع ذلك
الفرح ان كان ترعا والاكثاب عنده ان كان فرحا ، فان الخلصة الأولى من
التقصير ، والاخرى من التكدير وكوني أشد ما تكونين له اعظاما . يكن
أشد لك اكراما - وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له
موافقة .

واعلمى انه لا تصلين الى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك وهواه
على هواك فيما أحببت أو كرهت ، والله يخبر لك . »

وهكذا عالجت أمامة بنت الحارث في هذه العبارة أسس سعادة
الاسرة ووفق الزوجين في أسلوب حلو جميل وحكمة نيرة حسيمة ، فكلما
فرحت الزوجة لفرح زوجها وحزنت لحزنه ، وتكدرت لكدره ، وتجاوبت
معه في بأسائه وضرائه اشتد حرصه عليها ، وهذه ناحية نفسية تنبئ اليها
علماء النفس والاجتماع في العصر الحديث لارشاد الزوجة الى الحياة
الزوجية الهانئة الرغيدة .

ومن العجب أن تنطق أمامة بنت الحارث بهذه الوصية الذهبية منذ
نحو ألف وأربعمائة عام وتظل حتى اليوم دستوراً حكيماً لسعادة الأسرة ،
وسجلاً خالداً يجب أن تحرص عليه كل عروس حتى تضي في حياتها
الزوجية فوق طريق مفروش بالورود والرياحين تقطف فيه زهور الأمانى ،
وتجنى فيه ثمرات المحبة والرباط المقدس .

من القرنين الاول والثاني الهجريين :

بين اميرين

لعل أهم ميزة تميز الاسلام أنه دين السماحة والعدالة والتضامن الاجتماعي والتكافل بين الرعية . ولا يحرص على شيء قدر حرصه على الفضيلة والرحمة بالضعفاء والرفق بالفقراء ، وجلب السعادة والهناء الى البائسين ، ولا يتفر من شيء قدر نفوره من الرذيلة والاستغلال والسيطرة .

وعلى هذا الهدى وعبر هذا السبيل وإلى هذا الهدف سعى السلف الصالح من المسلمين وكان الرسول الكريم المثل الأعلى في سماحة الخلق ، وسماحة النفس وكرم الطبع والحدب على الرعية .

واشتهر من خلفاء المسلمين أميران طار صيتهما في الآفاق في توحى العدالة الاجتماعية في أروع صورها وأجمل معارضها وهما الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب والخليفة الزاهد العابد عمر بن عبد العزيز .

وقد أوضح عمر بن الخطاب للناس منهجه في العدالة الاجتماعية وحرصه على ألا يؤثر بالمال فريقاً على فريق أو طائفة على طائفة في خطيته التي جاء فيها : « وإنه ما أحد أحق بهذا المال من أحد وما أنا أحق من أحد به ، والله ما من المسلمين من أحد إلا وله في هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً ولكننا على مثالنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاده في الاسلام ، والرجل وقومه في الاسلام ، والرجل وعقاده في الاسلام » .

وفي خطبة أخرى قال : « لكم على ألا أجتبي شيئاً من خراجكم ولا مائة الله عليكم إلا من وجهه ، ولكم على إذا وقع في يدي ألا يخرج مني إلا في حقه ، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد نفورك ، ولكم على ألا أفيكم في المالك ولا أجركم في نفورك ، وإذا غبت في البعث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم » .

وهكذا رسم الفاروق عمر بن الخطاب منهجه في العدالة الاجتماعية وعدم إيفار فريق بالمال دون فريق إلا بمقدار دوره في خدمة الاسلام والعمل على دعم أركانه وصيانة بنيانه .

ولما انتصر المسلمون على كسرى وتقوضت دعائم ملكه - نقل المسلمون نفائس قصره الى المدينة ، وهناك وقف عبد الله بن الأرقم وخطب الفاروق عمر قائلاً : اجعلها في بيت المال حتى نقسمها فقال عمر بن الخطاب : والله لا يظلمها سقف بيت دون السماء .

فترك هذه النفائس الغالية وهذه الفخائر الثمينة بين صفتي المسجد
صفة النساء وصفة الرجال ، وبات القوم يحرسونها حتى تنفس الصبح
وانبلج النهار فكشف عمر بن الخطاب عنها الغطاء ، فرأى الذهب والفضة ،
ففاضت عيناه بالدموع وانسابت على خديه ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :
ما يبكيك يا أمير المؤمنين ، فوالله ان هذا ليوم شكر ويوم فرح وسرور ؟
فقال عمر بن الخطاب : لا والله ما فتح الله على قوم هذا قط الا جعل بأنهم
بينهم وألقيت بينهم العداوة والبغضاء .

ونهى عمر بن الخطاب وشرع يقسم الغنائم بين المسلمين :

ولقد شاء القدر أن يحقق فراسة عمر بن الخطاب فلم يلبث أن تغير
بعض الصحابة : فالزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف اقتنوا الضياع
والدور وابتنى سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق ، فرجع سمكها ووسع
فضاءها وجعل أعلاها شرفات .

ولم تلبث أن اندلعت الفتنة الكبرى التي أطاحت بخلافة عثمان بن
عفان وحينئذ تحققت فراسة عمر بن الخطاب في أن المال يبت العداوة
والبغضاء .

ومن أجل ذلك كان عمر بن الخطاب يحرص على اتفاق الاموال في وجوه
الخير والبر والقضاء على الفوارق بين الطبقات وكان يحاسب ولاته حسابا
عسيرا في تطبيق ذلك ويسأل عن مصادر ثروتهم وأسباب غناهم أو
رفعتهم .

وقد حدث أن ولي أبا هريرة على البحرين فازداد ثراؤه ، فطلق يضربه
بالدرة حتى أدمى جسده .

وفي أثناء ذلك كله كان يسهر عمر بن الخطاب على أمور الرعية وتتبع
أخبارها في آناء الليل وأطراف النهار ، وفرض مالا لكل مولود في الاسلام ،
ورفع الجزية عن الشيوخ الفقراء المسنين الذين لا يستطيعون أداءها .

وروى الطبري انه كان لا يأكل نقياً ولا يلبس رقيقاً ، ولا يتخذ بيا دون
حاجات الناس كما روى انه خطب الناس يوماً فقال :

يا أيها الناس اني والله ما أرسل اليكم عمالا ليضربوا أبشاركم
« جلودكم » ولا ليأخذوا أعضائكم ولكن أرسلهم ليعلموكم دينكم وستكم ،
فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه ، فوالذي نفس عمر بيده لأقصيه
منه ، فوثب عمرو بن العاص اذ ذلك وقال : أرايتك يا أمين المؤمنين ان كان
رجل من امراء المسلمين على رعيه ، وأدب بعض رعيته انك لتقصينه ؟ فقال
عمر : اي والذي نفس عمر بيده اذن لأقصينه ، وكيف لا أقصيه منه وقد
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه ؟ ثم بين لعمرو
ما يخشاه على الرعية من غف الامراء وظلم الملوك ، فقال : ألا لاتضربوا
المسلمين فتذلهم ولا تجمروهم فتفتنهم ولا تمنعهم حقوقهم فتكفروهم .

وعن الاسود بن أبي يزيد قال : كان الوفد اذ قدم على عمر رضى الله

تعالى عنه سال عن أميرهم فيقولون خيرا فيقول : هل يعود مرضاكم ؟
فيقولون نعم . . فيقول هل يعود العبد ؟ فيقولون نعم فيقول كيف صنعيه
بالضنف ؟ هل يجلس على بابہ ؟ قال قالوا لخصلة منها - لا - عزلة .



واحتذى عمر بن عبد العزيز حذو عمر بن الخطاب في تطبيق العدالة
الاجتماعية ونصرة الضعيف والاخذ بيد المظلوم وتوزيع الاموال على
المحتاجين والفقراء والمساكين ومساءلة الولاة عن مصادر ثرواتهم وموارد
غنائم .

وحدث أن جيء الى سليمان بن عبد الملك بهدايا كثيرة في آنية من
الذهب فمر عليها ومعه عمر بن عبد العزيز وكلما مر سليمان بصنف منها
التفت الى عمر وقال : كيف ترى هذا يا بن عبد العزيز ؟ فقال عمر :
يا أمير المؤمنين ، أنا هو متاع الحياة الدنيا ، فقال سليمان : فوالله لو
يوليت ما أنت صانع فيه ؟ قال عمر اللهم اقسمه حتى لا يبقى منه شيء ،
فقال سليمان : اللهم أشهد ، وقال عمر ذات يوم لولاه مزاحم : اني قد
اشتبهت الحج فهل عندك شيء ؟ فقال مزاحم عندي بضعة عشر دينارا
فقال عمر : وما تقع مني ؟ ثم مكث مزاحم قليلا وقال لعمر يا أمير المؤمنين
تجهز فقد جاءنا مال : سبعة عشر ألف دينار من بعض أموال بني مروان
فقال عمر : اجعلها في بيت المال ، فإن تكن حلالا ، فقد أخذنا منها ما يكفيها ،
وان تكن حراما فكفانا ما أصابنا فيها ؟ فشق ذلك على مزاحم ورأى عمر
ذلك فقال : ويحك يا مزاحم لا يكبرن عليك شيء صنعتته لله فإن لي نفسا
تواقة ، لم تتق الى منزلة فذلتها الا تأقت الى ما هو أرفع منها حتى بلغت
اليوم المنزلة التي ليس بعدها منزلة ، وانها اليوم قد تأقت الى الجنة . .

وحدث أن ضربوا لعمر بن عبد العزيز نقودا فكتبوا عليها «أمر عمر
بالوفاء» فلما رآها عمر غضب وقال : كسروها وكتبوا أمر الله بالوفاء
والعدل .

وكتب اليه بعض عماله يقول : لقد أضرت ببیت المال ، فرد عليه
عمر بما معناه : أعط ما فيه فإن لم يبق فيه شيء فلا ضير . .

وهكذا يتضح لنا أن عمر بن عبد العزيز لم يكن يحرص على اكتناز
المال أو انفاقه في ملاذه وملاهيته أو على أعوانه ورفاقه ، انما كان يتصرف
به في وجوه الخير أو البر ومعونة المحتاجين البائسين ، وكان يعتقد أن
بذد المظالم هو المخرج من كل مازق ، والمنقذ من كل هلاك .

يروى في هذا أن سليمان بن عبد الملك خسر ج إلى بعض البوادي
فارتفعت سحابة فجاءت برعد وبرق وصواعق ففرغ سليمان ونادى على
عمر بن عبد العزيز فقال : يا عمر ، يا عمر . . وكان بنو أمية اذا أصابتهم
شدة فزعوا اليه فأجاب عمر ، هأنذا وأقبل عليه ، فقال له سليمان : ألا
ترى ؟ فقال عمر : يا أمير المؤمنين ، انما هذا صوت نعمة ، فكيف لو سمعت
صوت عذاب ؟ فدفع اليه سليمان مائة ألف درهم قائلا : خذ هذه وتصدق
بها ، فقال عمر : أو خير من ذلك يا أمير المؤمنين ؟ فقال سليمان : وما هو ؟

فقال عمر ما معناه : قوم شاركوا فى ظلم الناس ؟ فاعتظ سليمان وجلس
فرد المظالم .

هذه صورة خاطفة من عدالة الاسلام وانصاف الخلفاء المسلمين ،
وهى تدل على ثورتنا الاجتماعية الحاضرة تستمد مبادئها من تعاليم الاسلام
وأنها منزهة عن الهوى ومن وحى الدين الحنيف ، وتهدف الى العدالة
والمساواة بين جميع أبناء الوطن الواحد ، إذ يجب أن يكون لكل فرد من
أفراد هذه الأمة الفرصة التى لاى فرد آخر فلا تمييز ولا استغلال
بأى معنى من معانى الاستغلال ، ولا سيطرة بأى معنى من معانى السيطرة ،
كما يهدف الى ألا تخضع طبقة أو يخضع أى قسم من المجتمع لطبقة أخرى.
أو قسم آخر حتى تتخلص من تحكم الإنسان فى أخيه الإنسان واستغلاله
المجتمع بعضه لبعض أو استغلال الأقلية فى المجتمع للأغلبية فيه .

وكل هذه المبادئ القويمة والاهداف النبيلة من لحمة الاسلام وسداه
وصفوته ولبابه ، ومن سنن السلف الصالح ونهج خلفاء الاسلام
الراشدين ، ومنهم الفاروق عمر بن الخطاب ثانيهم ، وعمر بن عبدالعزيز
خامسهم .

بشار بن بشار

هو شاعر من شعراء العصر العباسي ، وزعيم المحدثين منهم واسمه بشار المرغث بن برد بن يرجوخ العقيلي ولاء ، البصري منشأ ، وأصل آيائه من فرس طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة ، ونشأ أبواه بين بني عقيل بن كعب ، ثم أصبح بشار عتيقاً لهم ، وتربى في منازلهم ، واختلف إلى الأعراب الضاربين بالبصرة حتى خرج نابغة زمانه في الفصاحة والشعر .

وكان بشار أكمه أى ولد كفيف البصر ، جاحظ العينين ؛ قد تغشاهما لحم أحمر وكان مجدور الوجه ، قبيح المنظر ، بشع الصورة مفرط الطول ، ضخم الجثة ولم يكن يحفل بالحكام أو يخاف أحداً من ذوى السلطان ، وكان يعتقد أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان شديد التعصب للفرس وشعوبيا متعصبا .

وقد برع في الشعر منذ نعومة أظفاره ، ويروى أنه كان ينظم بعض شعر الهجاء ، فإذا هجا قوماً جاءوا إلى أبيه وكان «طياناً» يعمل اللبن من الطين فشكوه إليه ، فينهال عليه أبوه ضرباً ولطمًا وإهانة وسبًا ، فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبي الصغير ، أما ترحمه ؟ فيقول بلى ، والله أنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى ؛ فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فيقول : يا أبت إن هذا الذى يشكونه اليك منى هو قولى الشعر ، وإنى إن أنمت عليه أغنيتك وسائر أهلى ، فإذا شكوتنى فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول : (ليس على الأعمى حرج) فلما أعادوا شكواهم قال لهم ذلك ، فانصرفوا وهم يقولون : «فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار !» .

وقد نشأ بشار في البادية فتأثر بفصاحة الأعراب وبلاغتهم مما كان له أبعد الأثر في دقة أسلوبه ، وتحديد معانيه ، وسعة ألفاظه وقيل له ذات يوم : ليس لأحد من شعراء العرب شعر إلا وقد قال فيه شيئاً لمستكرته العرب من ألفاظهم ، وشك فيه وليس فى شعرك ما يشك فيه فقال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ههنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخاً من قصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نساءهم فنساءهم أقصص منهم ، وأيقعت فأبديت إلى أن أدركت . فمن أين يأتينى الخطأ ؟

وعندما انتشر بين الناس خبر مجونه شرعوا يوقعون به لدى ولي الأمر حتى يتخلصوا من شره ، ويتجنبوا خطره ، ففر بشار من البصرة حيث اتصل ببعض أمراء بنى أمية وظل يكيل لهم المدح ، وينظم لهم القصائد وعاش بين أكتافهم فترة طويلة حتى سقطت الدولة الأموية

وقامت على أنقاضها الدولة العباسية ، وعندئذ اضطرب عيش بشار وارتبك في حياته ، وتشاء الظروف أن يموت في هذا الوقت واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد وهما من الولاة الذين كانوا يتربصون به الدوائر حتى يلقوه الى التهلكة ، فيعود بشار بن برد الى البصرة مرة أخرى ، وقد زال عنه اضطرابه ، بيد أن أقاويل الناس ظلت تطارده حيثما حل وأينما كان حتى قتل عام ١٦٨ هـ وقد نيف على التسعين وقيل وهو الراجح وعمره سبعون سنة .

كان بشار شاعرا مطبوعا ، وكان العالم الاصمعي يعجب بشعره لكثرة فنونه وسعة تصرفه ويقول : « كان بشار مطبوعا لا يكلف طبيعته شيئا متخدرا » . أما الأخفش وسيبويه وهما من أعلام اللغة فقد كانا يستشهدان بشعره خوفا من هجائه ، كما جاء في الجزء الثالث من كتابه الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (ج ٣/٢٠٩ ، ٢١٠ طبعة دار الكتب) وقد أجمع رواة الشعر ونقادهم على أن بشارا هو رأس المحدثين من الشعراء في العصر العباسي ، وأسبقهم الى معاطاة البديع ، وطرق أبوابه المجون والهجاء ، كما كان يمتاز بغزل حضري رقيق يسيل رقة وينبضه لوعة وحبا كقوله :

لم يطل ليلى ولكن لم أتم	ونفى عنى الكرى طيف ألم
وإذا قلت لها جودى لنا	خرجت بالصمت عن لا ونعم
رفهى يا عبد عنى واعلمى	أننى يا عبد من لحم ودم
ان فى يردى جسما ناعلا	لو توكت عليه لانهدم

فهذه الابيات تبلغ درجة كبيرة من الرقة والجمال، فهو يصف ما يعانيه فى حب صاحبتة ، حتى ان طيفها يبعد عن جفونه النوم ، وينفض عن عينيه الكرى ، ثم يذكر جفانها وصداها ، وكيف أنها تتدلّل عليه ، ثم يأتي فى البيت الاخير بمعنى جديد فيه شيء من الخيال ، فهو يخس أن جسمة قد صار ناعلا هزىلا ، لا يتحمل أن تتوكأ صاحبتة عليه برغم ماكان مشهورا عنه من ضخامة الجثة وطول القامة وعلو الهامة .

وفى موضع آخر يقول بشار مخاطبا قومه ، شارحا حبه وهيامه « ولوعته وجواه :

يا قوم اذنى لبعض الحى عاشقة	والأذن تعشق قبل العين أحيانا
فقلت أحسنت ان الشمس طالعة	أضمرت فى القلب والأحشاء نيرانا
فأسمعينى صوتا مطربا هزجا	يزيد صبا محبا فيك أشجانا
يا ليتنى كنت تقاسحا مقلجة	أو كنت من قضب الريحان ريحانا
حتى اذا وجلت ريحى فأعجبها	ونحن فى خلوة مثلت انسانا
فحركت عودها ثم انثنت طربا	تشدو به ثم لاتخفيه كتماننا

أصبحت أطوع خلق الله كلهم
يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم
هل من دواء لمشغوف بجارية
لاكثر الخلق لي في الحب عصيانا
والأذن تمسق قبل العين أحيانا
الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
يلقى بلقياتها روحا وريحانا ؟

فهذه الصورة التي تتراعى في تلك الأبيات صورة جميلة تختلف عن الصور التي كنا قد عهدناها في العصر الجاهل وصدر الإسلام .
وبهذا الشعر الرقيق نقدر كيف كان شبان البصرة ونساؤها وخلفاؤها يولعون بشعره ويتغنون به ، وقد يخرج بشعره وتشبيبه عن الجيد المألوف عند أهل زمانه حتى أنكر عليه العلماء والمتورعون ذلك انكارا ولا سيما عندما أدرکوا أثره في فتیان البصرة ، وقد نهى الخليفة المهدي عن التشبيب فنظم بشار قصيدة يشير الى ذلك ويقول :

يا منظرًا حسنًا رأيته من وجه جارية فديته
بعثت الى تسو منى برد الشباب وقد طويته
والله رب محمد ما ان غدرت ولا نويته
أمسكت عنك وربما عرض البلاء وما ابتغيت
ان الخليفة قد أبى واذا أبى شيئا أبىته
ونهى الملك الهما م عن النساء وما عصيته
لا بل وفيت فلم أضع عهدا ولا رأيا رأيته

ثم أنشد ما مدحه به بلا تشبيب فحرمه الجائزة :

والحق أن بشارا هو أول من جمع في شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين وفتق عن المعاني الدقيقة والصور اللطيفة ، فشعره حد وسط بين الشعر التقديم والشعر الحديث .

ولبشار من المعاني المبتكرة والأخيلة البديعة في فنون الشعر ماسار يذكره الركبان ، وفي ذلك يقول الجاحظ في كتابه «البيان والتبيين» كان بشار شاعرا خطيبا صاحب منثور وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع ، المتغنين في الشعر القائلين في أكثر أجناسه وضروبه ، وقد طرق بشار كل فنون الشعر التي عرفت قبله وأربى عليها وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء ، والمجون ، وقد صرح بعقائده فاسدة في شعره ، ورأى أن هذا يحببه إلى طبقة الخلفاء ، فتمادى في غيه وهجائه وأصبح مولعا بهذا اللون ، قليل المبالاة بالدين ، متهما بالزندقة لم يسلم من لسانه خليفة ولا سوقة ، فمقته العلماء والمتكلمون .

وكان واصل بن عطاء يقول : « ان من أخدع حيائل الشيطان لكلمات لهذا الأعمى الملحد » غير أن نبوغه وبراعته ودعابته شغقت له لدى كثير من رؤساء الموالى فعاش بقية عمره في البصرة حتى لاقى حتفه كما سبق أن ذكرنا آنفا .

وهاجى بشار حماد مجرد واحتدم اللجاج والفنف بالأقوال المفسدة بينهما ، وظهر حماد عليه فى بعض أهاجيه ، وآله ذلك وإن لم يسقط منزلته كما هاجى بشار بن برد غيره من أقطاب الشعر فى هذه الفترة ، وقامت بينه وبين معاصريه مساجلات أدبية ذكر بعضها فى كتاب الأغاني لأبى الفرج الإصفيهانى .

ولبشار بن برد حكم ونصائح غالية ، تدل على خبرة بالناس ودراية بشئون الحياة كقوله :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبيا صديقك لم تلق الذى لاتعاتبه
فمض واحدا أو صل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربى ؟
وقوله فى قصيدة أخرى :

خطيلى إن المال ليس بنافع إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكننت إذا ضاقت على محالة تيممت أخرى ما على مضيق
وما خاب بين الله والناس عامل له فى التقى أو فى المحامد سوق
وما ضاق فضل الله عن متعفف ولكن أخلاق الرجال تضيق
فهذه الأبيات تدل على جمال المعنى وتمتاز برقة الأسلوب ، وعمق الفكرة وتوضح العقلية الجديدة الممتازة فى ذلك العصر .

ومن أروع صوره الرائعة تلك الصورة البديعة الدقيقة الناطقة التى رسمها بشار بن برد برغم ذهاب بصره للجيش فى أثناء المعركة وقت أن يحمى وطيس القتال .

كان مثار النقع فوق رموسنا وأسيفنا ليل تهاوى كواكبها
فنحن نكاد نرى ونكاد نلمس تلك الصورة الحية التى صورها لنا بشار فأحسن تصويرها ، فبشار قد ولد أعمى ، فما نظر إلى الدنيا قط ، ومع ذلك فإنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض كأنما أحاط بكل شئ منها علما ، حتى إن البصراء يعجزون عن الاتيان بمثله .

ومن أروع معانيه كذلك قوله :

لمست بكفى كفه أبتقى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعنى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت وأعداني فأنفقت ما عندي

فعقلية بشار الجديدة أنتجت لنا هذه الأخيذة الواسعة الممتازة ، وتلك الأفكار البديعة التى تبرز عمق الفكرة ، وتجعلنا نلمس بوضوح تلك المعالم الحضارية التى تظهر فى شعره ونلمس الفرق الشاسع بين هذا الشعر الحضرى وبين الشعر الجاهلى مثلا .

ومن المعاني الفلسفية الرائعة التي افترعها ذهن بشار افتراء ، قوله
وهو يتحدث عن مبدوحه :

ليس يعطيك للرجاء أو الحـو ف ولكن يلد طعم العطـا
فبنا جعل للعطاء لنة لا تدانها لنة ، وسعادة لا تعدلها سعادة ،
وهذا البيت يمثل العقلية الجديدة التي تفضل بين الشيء وغايته ، وتحوله
من وجهته المادية الى وجهته النفسية .
ويقول في موضع آخر :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى اليك فان الحب أقصاني ؟
فهذا معنى جديد مبتكر لم يكن متداولاً من قبل ، وأين مثل هذا
بالتقياس الى البيت الآتي :

وعى الفعال كعى النـال وفي الصمت عى كى الكلم
فبشار لا يخصص العى بالكلام بل يجعله في المقال والفعال ، بل يذهب
الى أبعد من هذا فيقيم عى الصمت عى الكلام .

وبرغم معاني بشار الرائعة التي أتى بها في شعره ، فإنه كان في بعض
الأحيان يهبط الى هوة عميقة من الأسفاف ، وعن خلاد قال : قلت لبشار :
انك لتجى بالشعر المتفاوت ، قال : وما ذاك ؟ قلت : انك تقول شعرا
تثير به النقع وتخلع به القلوب ، مثل قولك :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو قطرت دما
إذا ما أعرنا سييدا من قبيلة ذرا منبر صلى علينا وسلمنا
الى أن تقول :

ربابة ربة البيت تصب الحـل في الزيت
لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

فقال : لكل شيء وجه وموضع ، فالقول الأول جد ، وهذا قلته في
جاريق ربابة ، وأنا لأأكل البيض من السموق ، وربابة هذه لها عشر دجاجات
وديك ، فهي تجمع البيض وتحفظه ، فهذا عندها أحسن من قول « قفا نيك
من ذكر حبيب ومنزله عندك » .

كما لام كثير من النقاد بشار بن برد لقوله :

ان سـلى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجـمل
وإذا أدنيت منها بصـلا غلب المسك على ريح البـصل
فكان يعتز بأنه قال ذلك في صباه أو من أجل المزاح .

وكان بشار يمتاز برقة الشعور برغم ما يبدو عليه من غلاظة في الطبع
وهجامة في الصوت ، وبشاعة في المنظر ، ويروى الرواة أن ابن أخيه مر به

ومعه قوم فقال لرجل معه : من هذا ؟ فقال ابن أخيك ٠٠ فقال : أشهد أن أصحابه أنذال قال : وكيف عرفت ذلك ؟ قال : ليست لهم فعال ٠

كما يروى الرواة أن أبا دهمان الغلابي قال : مرت ببشار يوما وهو جالس على بابهِ وحده ، وليس معه خلق ، وبِيدِهِ مِخْصَرَةٌ يلعب بها ، وقدامه طبق فيه تفاح ، وأترج ، فلما رأيته وليس عنده أحد ، جثت قليلا قليلا وهو كاف يده حتى مدت يدي لأتناول منه ، فرفخ القضييب وضرب به يدي ضربة كاد يكسرهما فقلت له : قطع الله يدك يا بن الفاعلة ٠٠ أنت الآن أعمى ، فقال : يا أحمق فأين الحس ؟

ويروى كذلك أن أحدهم سأله ذات يوم عن منزل أحد الأشخاص فجعل بشار يفهمه وهو لا يفهم فأخذ بيده ، ومضى يقوده الى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيرا لا أبالكمو قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار الى منزل الرجل ثم قال له : هذا هو منزله يا أعمى ، فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي فى الصدور !

وكان بشار بن برد مع هذا سمح الخلق ، رضى النفس ، وقب على بشار بعض المجان وهو ينشد شعرا فقال له أحدهم : استر شعرك هذا كما تستر عورتك ، فصفق بشار ببديه وغضب وقال له : من أنت ؟ ويلك ٠٠ قال : أنا - أعزك الله - رجل من باهلة ، وأخوالى سبلول ، وأصهارى عكل واسمى كلب ، ومولدى بأضاح ، ومنزلى ببني بلال ، فضحك بشار ثم قال اذهب ويلك ، فأنت عتيق لؤمك ، قد علم الله أنك استترت منى بحصون من حديد ٠

كما كان بشار يمزح ويحسن الدعابة : قال هلال يوما لبشار وكان صديقا له يمازحه : ان الله لم ينهب بصر أحد الا عوضه بشيء فما عوضك ؟ قال بشار : الطويل العريض ٠٠ قال هلال : وما هذا ؟ قال عندما أراك وأمثالك من الثقلاء ٠

وكان بشار يعتز بشخصيته وشعره اعتزازا عظيما ، وينعى على هؤلاء الشعراء الذين يسرقون منه معانيه وأفكاره : ومن ذلك أنه غضب على سلم الحاسر وكان من تلامذته ورواته ، فاستشفع لديه بجماعة من اخوانه فجاءوه فى أمره فقال لهم : كل حاجة لهم مقضية الا سلما ٠٠ قالوا : ما جئناك الا فى سلم ، ولا بد من أن ترضى عنه لنا ٠٠ فقال : أين هو الخبيث ؟ قالوا : ها هو ذا ٠

فقام اليه سلم فقبل رأسه ومثل بين يديه ثم قال : ياأبا معاذ أنا خريبك وأديبك ، فقال ياسلم من الذى يقول :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات القاتك اللهم

قال : أنت ياأبا معاذ ، جعلنى الله فداك ٠٠ قال : فمن الذى يقول :

من راقب الناس مات غما وفاز باللفة الجسور

قال : خربجك يقول هذا - يعنى نفسه - قال : فتأخذ معاني التي قد عنيت بها وتعبت في استنباطها ، فتكسوها الفاظا أخف من الفاظي حتى يروى ما تقول ويتهب شعري لا أرضى عنك أبدا ، قال : فما زال يتضرع اليه ويشفع له القوم حتى رضى عنه •

ولم يك بشار محبوبا من غالبية الناس وفي ذلك يقول خلف : كنت أسمع بشارا قبل أن أراه فذكروه لى يوما ، وذكروا بيانه ، وسرعة جوابه وجودة شعره ، فاستنشدتهم شيئا من شعره فأنشددونى شيئا لم يكن بالمحمود عنى فقلت : والله لا تبه ، ولا طاطن منه ، فأتيته وهو جالس على بابيه ، فرأيت أعنى قبيح المنظر ، عظيم الجثة فقلت : لعن الله من يبالي هذا ووقفت أنا أتأمله طويلا ، فبينما أنا كذلك اذ جاءه رجل فقيل : ان فلانا سبك عند الأمير محمد بن سليمان ووضع منك فقال : أو قد فعل ؟ قال نعم ، فاطرق وجلس الرجل عنده وجلست ، وجاء قوم فسلموا عليه ، فلم يرد عليهم فجعلوا ينظرون إليه وقد انتفخت أوداجه فلم يلبث الا ساعة حتى أنشدنا أبياتا بأعلى صوته وافخمه مصورا غيبته عند الأمير منها :

نارى تحرقه وبيتي واسع للمعتفين ومجلس معمور
قال : فارتمت والله فراثي ، واقتصر جللى ، وعظم فى عيني جدا ،
حتى قلت فى نفسى : الحمد لله الذى أبعدنى عن شرك •

وقد أدرك بشار جريرا والفرزدق وهجا جريرا ألا أنه أعرض عنه استخفافا فتألم بشار من ذلك وقال : لو هاجاني لكنت أشعر الناس •
وصفة القول أن بشار بن برد كان امام المحدثين فى الشعر ، وكانت معانيه مبتكرة خلاصة وكان غزله رقيقا ورقيقا عذبا أخاذا مثل :

حوراء ان نظرت الي — ك سقتك بالعينين خرا
وكان رجع حديثها — قطع الرئاض كسين زهرا
وكان تحت لسانها — هاروت ينفث فيه سحرا
وتخال ما جمعت عليها — ثيابها ذهباً وعطرا

كما كان بشار حكيما رزينا برغم خلاعته ومجونه وضرب الأمثلة الصادقة على ذلك فيما نظم من شعر كقوله :

إذا بلغ رأى المشورة فاستمع برأى حكيم أو نصيحة حلازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فان الحسوفى قوة للقوادم

وقد بلغ ما نظمه من شعر نحو ١٢ ألف قصيدة ، ولذلك جاهر بنى بدي أهل الأدب بأن له ١٢ ألف بيت جيد فقالوا له : هذا القدر لا يجتمع لكل الشعراء فقال : لى ١٢ ألف قصيدة ، ولم يبق من هذه القصائد الى أيام ابن النديم صاحب كتاب «الفهرست» الا ٩٠ ألف بيت ، وتنف متفرقة فى كتب الأغاني وابن خلكان ، والشعر والشعراء لابن قتيبة •

أما ديوان الشاعر فقد طبع في لجنة التأليف والترجمة والنشر في
ثلاثة أجزاء كبيرة .

أما عن مصير الشاعر فقد حدث عام ١٦٨ للهجرة أن أمر الخليفة
المهدي وهو بالبصرة بجلده بالسياط في حراقة بسجلة ، فضرب سبعين
سوطا حتى مات ، ثم دفنه أهله بجانب قبر حماد عجرد ، وقيل : أن سبب
قتله يرجع إلى تلك الأبيات المشهورة التي هجا بها الخليفة المهدي ووزيره
يعقوب بن داود ولا يرجع إلى سبب زندقته :

بنى أمية هبوا طال نومكمو ان الخليفة يعقوب بن داود
خضعت خلافتكم يا قوم فالتسموا خليفة الله بين الزق والمود

من القرن الثالث الهجرى :

ابراهيم بن سيار النظام

هذا فيلسوف من أشهر فلاسفة الاسلام ، واحد فرسان اهل النظر والكلام على حد تعبير الخطيب البغدادي فى « تاريخ بغداد » .

ولد فى القرن الثانى من الهجرة وتوفى فى الربع الأول من القرن الثالث للهجرة على وجه التقريب ، وكانت له آراء رشيّدة ، ونظرات سديدة فى اعجاز القرآن ، وتفسيره ، وتحليله وتفصيله كما كانت له آراء فى الذات الالهية ، والصفات الربانية والأفعال العلية ، والقدرات الانسانية

ويقال : ان ابراهيم بن سيار النظام عاصر هارون الرشيد وحضر نكبة البرامكة ولكن هذا القول ينقصه الدليل غير أن الثابت أنه ولد فى البصرة. وانه لقب بالنظام لتنظيمه الشعر ، كما كان يحضر مجلس أبى الهذيل العلاف وكان يصحبه فى غدواته وروحاته ويحضر مناقشاته ومناظراته ، فتعلم منه فن الاستمالة والاقناع ، وقد طاف بكثير من البلاد الشرقية ، ونهل من ثقافتها المختلفة ودرس مذاهب متباينة فاشتد أيمانه بالله ، وازداد تمسكا بعقيدته ، وكان يرى أن اعجاز القرآن بالصرفة ، يعنى أن الله صرفهم وأعجزهم عن معارضته والياتيان بمثله مع قدرتهم على ذلك .

والمعروف أن المتكلمين ذهبوا مذاهب شتى فى وجه الاعجاز : فقال بعضهم :

ان وجه الاعجاز يقع فى النظم الغريب المخالف لنظم العرب .

وقال بعضهم : ان وجه الاعجاز من ذروة البلاغة التى اشتمل عليها ولم يأت أحد بمثلها .

وقال بعضهم : ان وجه الاعجاز فى النظم حيناً ، وفى كونه أعلى درجات البلاغة حيناً آخر .

وذهب بعضهم ومنهم الشريف المرتضى الى أن الله صرفهم بأن سلبهم العلوم التى يحتاج اليها فى المعارضة .

وذهب ابن حزم الى أن الله منع الناس من معارضته ، وكسا الاعجاز القرآن وسلبه جميع الخلق وأن قليله وكثيره معجز

ويرى بعضهم أن وجه الاعجاز فى القرآن أنه يخبر عن الغائب كتدوئه تعالى فى سورة الروم : «وهم من بعد غلبهم سيفلون» .

والواقع أن اعجاز القرآن لا يرجع الى الصرفة فحسب ولا يرجع الى

إخياره عن الفيوب فحسب ، ولا يرجع الى أسلوبه الرصين وآياته المحكمات
 إنما يرجع الى هذا كله فإن ما اشتمل عليه القرآن من نسج متين ، وعبارة
 منتقاة ، ومعنى مبتكر ، وأسلوب قصصى جذاب خلاب ، وحكمة بالغة -
 ليفهم العرب ويقر عنهم بالعجز فى المحافل ، وكان الكلام سيد عملهم وما
 جاشت به صدورهم يصلح به حال الناس فى دنياهم وآخرتهم . وقاض به
 بيانهم حتى قالوا فى كل ملاح لعيونهم ، وخطر على قلوبهم وكان فيهم العدد
 الكبير من العقلاء والنفر الفقير من أهل الحزم والحكمة وهم بعد هذا كله
 أشد خلق الله أنفة وأفرطهم حمية ، ومع كل هذا لم يعارضوه ولا تكلفه أحد
 منهم ولا أتى ببعضه ولا شبيه به ، ولا ادعى أنه قد فعل اللهم الا من كان
 أشبه بالمجانين ، ومحال أن تكون المعارضة فى طاقتهم مع كثرة دعاتهم
 وبلغائهم وبعد الهمة وشدة العداوة ثم لا يعارضوه ولا يجوز أن يكون فى
 طاقتهم المعارضة بالكلام ، ثم يتجشموا الحرب ، وبذل المهج والأموال
 والخروج من الديار ، لان الاتيان بخير الكلام أيسر من القتال واخراج المال .

وتاريخ العرب حافل بكثير من الهراء الذى حاول المرجفون أن يحاكوا
 به القرآن بيد أنهم باءوا بالفشل والحسران المبين، وجاء كلامهم أشبه بهذيان
 المحمومين ، وتهاويل النائمين فقال مسيلمة الكذاب : الفيصل وما أرداك
 ما الفيصل ، له ذنب وبيل ، وخرطوم طويل ، وقال : « يا ضفدع تمنعين
 نصفك فى الماء ونصفك فى الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين » .

وغير خاف أن هذا الكلام أشبه بالأوهام والترهات وأقرب الى الطيش
 والحماقات منه الى الحديث المعقول الذى يخاطب القلوب والعقول جميعا .

وقد أبدى الجاحظ تلميذ ابراهيم بن سيار النظام رأيه فى الاعجاز
 فقال فى كتاب « حجج النبوة » : « لأن رجلا من العرب لو قرأ على رجل من
 خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة طويلة او قصيرة لتبين له فى نظامها ونسجها
 وفى لفظها وطبعتها أنه عاجز عن مثلها ولو تحدى بها أبلغ العرب لظهر
 عجزه عنها ، وليس ذلك فى الحرف والحرفين والكلمة والكلمتين ، وأنا لله ،
 وعلى الله توكلنا ، وربنا الله ، وحسينا الله ونعم الوكيل . وهذا كله فى
 القرآن ، غير أنه متفرق غير مجتمع ، ولو أراد الله أنطق الناس أن يؤلف
 من هذا الضرب سورة واحدة طويلة او قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه
 ومخرجه ما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان وسعد بن عدنان » .

وكان ابن سيار يرى عدم البعد فى التاويل فى تفسير القرآن، وانتقد
 ما يذهب اليه بعض المفسرين من تفسير المساجد بالجياه ، والابل بالسحاب
 لا الجمال ولا النوق والويل بواد فى جهنم ، كما قسموا « سلسبيلا » فى
 قوله تعالى : « عينا فيها تسمى سلسبيلا » الى كلمتين هما (سل و سبيلا)
 وكذلك ينتقد تفسيرهم للجلود فى قوله تعالى : « وقالوا للجلودهم لم شهدتم
 علينا » يجعلها كناية عن الفروج ، وقوله تعالى : « وثيابك فطهر » بمعنى
 قلبك فطهر .

وهكذا مضى ابن سيار النظام ينتقد المفسرين ، ومقطع الرأى عنده
 معو البعد عن التاويل وترك التكلف والجري وراء الغريب .

أما فيما يتعلق بذات الله فإنه لا يخالف سائر المعتزلة من تنزيه الله بالتنزيه المطلق وإثباته ذاتا قديمة ونفى الصفات الزائدة عن الذات ، وكان يقول : « إن الله لم يزل عالما حيا سميعا بصيرا قديما بنفسه لا يعلم وقته ، وحياة وسمع وبصر وقدم ، والله كامل ويفعل بمقتضى علمه وإرادته هي فعله فهي المراد ، والله لا يفعل الا ما هو لئال فلا معنى للمول بأنه يقدر على القبائح ، فالقانون الذى تسير عليه الأفعال الالهية هو الكمال الواجب لله ، فإنه لا يفعل ما دون الأصلح ، ولا يجوز على الله عز وجل فعل النقص وأن الله قديم والعالم حادث ومخلوق لله لغرض وهو المنفعة ، والله خلق الخلق لئله تكون هي المنفعة والعللة هي الغرض في خلقه لهم وما أراد من منفعتهم ، وإذا كان الانسان عاقلا قادرا ، وجب عليه معرفة الله بالنظر والاستدلال ، والقرآن الكريم يحض على النظر والاستدلال ويدعو الى التفكير والتأمل ويحث على التمعن والتبصر فقال تعالى في سورة آل عمران : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » ، وقال في سورة البقرة : « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المنشخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون » .

وقال في سورة الحج : « أقلم يسروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها » .

وقال في سورة يوسف : « وكاين من آية فى السموات والأرض يمعرون عليها وهم عنها معرضون » .

ومن أجل ذلك دعا النظام الى النظر العقلى فى الخير والشر ، والقاعدة عنده أن العقل والاختيار والفعل المترتب على ذلك هي التى توجب الثواب والعقاب فإذا عدم العقل أو الفعل أو الاختيار ارتفع التكليف وزال العقاب .

هذه بعض آراء ابراهيم بن سيار النظام التى تثبت أن الايمان اذا اقترن بالعقل كان أعظم رسوخا وأقوى ثباتا وأن الاسلام لا ينكر فضل العقل ولا يجحد أهميته ولا يطمح حقه انما يستعين بالعقل فى نشر تعاليمه ووصاياه وكلما كان العقل رائدا للقلب وهاديا له استطاع المرء ادراك الأمور وتكشف أمام بصره الحقائق كلها شاهدة على قدرة الله عز وجل معبرة عن عظمته .

وقد قبض الله لابراهيم بن سيار النظام تلميذا من تلاميذه الذين نشروا آراءه وتعاليمه هو الجاحظ الأديب العربى المعروف صاحب المؤلفات والتصانيف الكثيرة ، فكان لسان صدق ودعوة حق لاستاذه ، ولا تخلو كتاباته من التأثير بمنهج النظام أن لم تكن صورة منه ، فيها كثير من التفصيل والتحليل والإسهاب والأطناب .

من القرن الثالث الهجرى :

أبو حيان التوحيدى

عالم مفكر متصوف عاش فى القرن الثالث الهجرى بعد أن تولى المتوكل الخلافة عام ٢٣٢ هـ وتمزقت الخلافة الى دويلات ، فاستولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستبد البريدى بالاهواز ، واستقل بنوبويه بفارس والرى والجبل واصفهان ، وانفردت ديلم بطبرستان وجرجان وكرمان . وقامت الدولة السامانية فى خراسان وما وراء النهر ، ثم خلفتها الغزنوية بالهند وأفغانستان ، وأقام بنو حمدان ملكهم فى الموصل وديار بكر وربيعه واستقل الأخشيديون بمصر والشام ثم خلفهم الفاطميون ، وصارت الإمامة والبحرين بيد القرامطة ونهض الفاطميون بالمغرب وأفريقية ثم بمصر والشام واستقل عبد الرحمن الناصر بالأندلس ولم يبق للخليفة العباسى الا بغداد وملحقاتها .

فى هذه الفترة عاش أبو حيان التوحيدى ذلك العالم الخبير باللسنة والنحو والادب ، والكلام والتصوف والفلسفة والفقه ، وربما لم يند له الا الطب والكيمياء والرياضة .

وقد اتصل أبو حيان بأبن العميد كما اتصل بالصاحب بن عباد . . . ودارت بينه وبينهما مساجلات ومناقشات أدبية كبيرة .

وقد اختلف الباحثون فى سبب تسميته بالتوحيدى ، فقيل : ان السبب فى هذا اللقب ان أباه كان يبيع نوعا من التمر ببغداد اسمـه «التوحيد» وهو الذى يريده أبو الطيب المتنبى فى قوله :

يترشفن من دمي رشقات من فيه أحلى من « التوحيد »

وقيل : ان سبب هذا اللقب يرجع الى أنه من طائفة المعتزلة ، وكان المعتزلة يسمون أنفسهم بأهل التوحيد .

وذكر السبكي فى طبقات الشافعية أنه درس الفقه الشافعى على القاضى أبى حامد المروزى ، وسمع الحديث من أبى بكر الشاشى ، وأبى سعيد السيرافى وجعفر الخلى ، أما اللغة فقد استمدّها مشافهة من فى البادية .

ومن العلماء الذين التزم صحبتهم ومجالسهم - العالم أبو سعيد السيرافى الذى قرأ عليه شرحه لكتاب منبويه ، ويلقبه أبو حيان التوحيدى فى كتاب «الاقتناع والمؤانسة» بالامام كما يقول عنه : انه شيخ الدهر وفريد العصر ، العديد المثل .

ويقول الدكتور زكي مبارك في كتابه عن النثر الفني في القرن الرابع للهجرة : ان التوحيدى كان من أنصار اخوان الصفا ، ولكنه كان يستتر اعتقاد لسطح الجمهور ، وكانت طريقته في تأييدهم أن ينطق الأشخاص بعبارات مريبة كقوله :

الشرعية طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء والأنبياء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، أما الفلاسفة فانهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا .

واتهم الكاتب اللغوى الأديب ابن فارس المتوفى في القرن الرابع نى كتابه «الفريدة والخريدة» أبا حيان التوحيدى بالزندقة فقال: كان أبو حيان قليل الدين والورع عن القذف والمجاهرة بالبهتان .

وهذا القول ينقصه الدليل، فأبو حيان التوحيدى كان متصوفاً يذوب وجداً وعشقا ويسيل رقة وحباً ، وهو القائل «ان كل حى مصيره الى الفناء الا الخالق ، وقال : اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا اللغة التى تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب حتى نعيش فى هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى عاملين بشرائط الدين ، آخذين بأطراف المروءة آنفين بملابسة ما يقدح فى ذات البين ، متزودين للعاقبة التى لا بد من الشغوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، انك تؤتى من تشاء ماتشاه .

هذا وقد أحرق أبو حيان التوحيدى ، أكثر كتبه ، ويرجع المؤرخون أنه فعل ذلك لانه فقد الأمل فى المجد والغنى والشهرة ، كما فقد لذة الحياة عندما نيف على الثمانين ، ولعله كان مريضاً معسراً أو فقيراً معدماً ، فأحرق كتبه فى غمرة من النعمة واليأس والوساوس .

وما أعمق إيمان أبى حيان عندما يقول : حرام على قلب استنار بنور الله أن يفكر فى غير عظمة الله ، حرام على لسان تعود ذكر الله أن يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من أذنب الدنيا أن تدنس بشئ من مخالفة الله ، حرام على عين نظرت الى مملكة الله أن تحلق الى غير الله . حرام على كبد ابتليت بالثقة بالله أن تظلم الى غير الله حرام على من لم يرد الحير الا من الله أن يجدد طمعا فى غير الله ، حرام على من تلذذ بمناجاة الله أن يناجى غير الله .

ويظهر أن بعض التيارات الخفية هى التى أوحت الى بعض الناس باتهامه بالزندقة حتى قال أبو الفرج بن الجوزى فى تاريخه، زنادقة الاسلام ثلاثة ، ابن الراوندى وأبو حيان التوحيدى وأبو أعلاء وقال : وأشهرهم على الاسلام هو أبو حيان لانه مجتمخ (١) ، ولقد وقف سيدنا الصاحب (٢) كافى الكفاة على بعض ما كان يداخله ويخفيه من سنوء الاعتقاد فطلبه ليقتله فهرب واستتر ومات فى الاستتار .

وبينما يروى السبكي فى الطبقات هذا الكلام يقول ياقوت فى معجم

(١) كافى .

(٢) هو الصاحب بن عباد .

الأدباء : كان متفننا في جميع العلوم من النحو واللفظ والشعر والأدب والفقه والكلام ، معتزليا ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ شيخ المتصوفة فيلسوف الأدباء ، أديب الفلاسفة ، أمام البلغاء ، سخيف اللسان ، قليل الرضاء عند الاساءة اليه والاحسان ، فرد الدنيا التي لانظير له ذكاء وفطنة وفصاحة .

وقد توفي أبو حيان التوحيدى عام ٣٦٠ هـ وذهب السيوطى الى أنه توفي عام ٣٨٠ هـ وخلف وراءه مجموعة قيمة من الكتب منها كتاب الأدب والانشاء فى الصداقة والصديق وقد طبع بالمطبعة الشرقية عام ١٣٢٣ هـ وهو عبارة عن رسالتين الأولى عن الصداقة والصديق والأخرى عن العلوم وكتاب المقابسات ، وهو مائة مقابلة وثلاث فى مباحث العلوم ، وهذا الكتاب مفيدا جدا ، لعل الحريرى حذا حنوه كما يرجع ذلك حاجى خليفة فى كشف الظنون .

وقد ذكر المؤلف فى هذا الكتاب بعض ماوقع له من مقاضات علماء عصره فى بغداد ، وكانوا يجتمعون فى دار أبى سليمان المنطقى ، فيتداكرون فى موضوعات شتى ، وقد نشر فى الهند عام ١٣٠٥ هـ والمقتبس عام ١٣٣٠ هـ .

وتوجد من المقابسات نسخة فيها ١٠٦ مقابسات تتلوها رسالة الوصايا الذهبية لفيثاغورس وطبع طبع حجر فى الهند على يد ميرزا حسن الشيرازى فى الخامس من رمضان عام ١٣٠٦ وتتلوها الرسائل الآتية :

- ١ - الانصاف فى أسباب الخلاف لشاه ولى الله الدهلوى .
- ٢ - الأقوال المعربة عن أحوال الاشربة للشيخ حسن الجبرتي الحنفى
- ٣ - عقد الجيد فى أحكام الاجتهاد والتقليد .
- ٤ - كشف الزور والبهتان عن صنعة بنى سافان للملا عبد القيوم ديتى كشمز انعام ناظر الاوقاف .
- ٥ - ايضاح الدلالات فى سماع الآلات للشيخ عبد الفنى النابلسى وتتلو هذه - الرسائل الآتية :

- ٦ - القرب فى محبة العرب للمحافظ عبد الرحيم الفراقى .
- وكتب فى آخر الكتاب أنه طبع فى مدينة بمبائى على يد مصححه أمين بن الامام حمن الحلوانى المدنى عام ١٣٠٣ هـ .
- وفى فهرس دار الكتب المصرية ذكر أربع رسائل غير موجودة فى النسخة المذكورة ، وهى مقالة أقوم المسالك لخير الدين باشا التونسى ، وبغية المرتاحين فى تصحيح الضاد ، لعل بن غانم القدسى المتوفى عام ١٣٠٦ هجرية ثم كتاب السياسة الشرعية لابراهيم الحلبي ، والفلاكة والمفلوكون للدليجى .

كما نشر مرجليوث المستشرق الانجليزى عام ١٩٠٥ فى لندن مناظرز ابن تونس القتاني وأبى سعيد السيرافى فى رواية أبى حيان التوحيدى .

من القرن الرابع الهجري :

المستنبي

شاعر عربي مشهور ، اسمه أبو الطيب أحمد بن الحسين ويعرف بأبي الطيب المتنبي ، ولد في محلة تدعى كندة بالكوفة ، ولذلك نسبته بعض المؤرخين الى قبيلة كندة في بلاد العرب ، فقالوا بديء الشعر بكندة وختم بكندة ، يعنون أمرا القيس في البدء والمتنبي والرمادى الشاعر في الختام وكانا متعاصرين ، وروى أن أبا فراس الحمداني قال لأبي الطيب في مجلس سيف الدولة «بادعي كندة» .

وكان والد المتنبي يعرف بعبدان السقاء ، أما والدته فيقال انها كانت تنسب الى قبيلة «همدان» وكانت امرأة صالحة تقية .

وجاء في يتيمة الدهر للثعالبي أن والد المتنبي «سافر الى الشام فلم يزل يتقله من باديتها الى حاضرها ، ومن مدرها الى وبرها ، ويسلمه الى المكتاب ويردده في القبائل ومخايله نواطئ الحسنى عنه ، وضوا من النجع فيه ، حتى توفي أبوه ، وقد قرع أبو الطيب وشعر وبرع» .

وقد نشأ أبو الطيب محبا للعلم متملقا به ، يحرص على قراءة ذخائر الكتب ودواوين من سبقه من الشعراء ، روى الخطيب عن التنوخي عن أبي الحسن محمد بن يحيى العلوي الزيدي أنه قال : «وأكثر ملازمة الوراقين ، فكان علمه من دفاترهم ، فأخبرني وراق كان يجلس اليه يوما قال لي : ما رأيت أحفظ من هذا الفتى ابن عبدان قط فقلت له : كيف ؟ فقال : كان اليوم عندي وقد أحضر رجل كتابا من كتب الأصمعي (سماه الوراق وأنسبه أبو الحسن) في نحو ثلاثين ورقة ليبيعه . قال : فأخذ ينظر فيه طويلا ، فقال له الرجل : يا هذا أريد بيعه ، وقد قطعني عن ذلك فإن كنت تريد حفظه في هذه المدة فبيعه فقال له : إن كنت حفظته فمالي عليك ؟ قال : أهب لك الكتاب قال فأخذت الكتاب من يده ، فأقبل يتلوه الى آخره ثم استلبه فجعله في كفه وقام ، فعلق به صاحبه ، وطالبه بالثمن ، فقال : ما الى ذلك سبيل وقد وهبته لي : قال : فمعتناه منه ، وقلنا له : انت شرطت على نفسك ، هذا للفلام ، فتركه عليه» .

وهكذا كان أبو الطيب ، قوى الحافظة دوبا على القراءة والاطلاع عكفا على دكاكين الوراقين وقد طاف بملن الشام ، وقضى فترة غير قصيرة في «بادية السماوة» حتى يتلقى اللغة من الاعراب فلا يعجم لسانه ويحيط بأسرارها ، ويصل الى أغوارها وقد ادعى بعض المؤرخين أن المتنبي ادعى في هذه الفترة النبوة .

ويروى من ذلك أن أبا الطيب لما خرج إلى كلب وأقام فيهم ادعى أنه علوى حسنى ثم ادعى بعد ذلك النبوة ، ثم عاد يدعى أنه علوى إلى أن اشتهر عليه بالشام الكذب في الدعوى ، وحبس دهرًا طويلًا ، وأشرف على القتل ثم استتيب ، وأشهد عليه بالنبوة وأطلق .

ويروى كذلك أنه تنبأ في بادية السماوة ونواحيها ، إلى أن خرج عليه لؤلؤ أمير حمص من قبل الأخشيديين فقاتله وأسرته ، وشرده من اجتماع إليه من كلب وكراب وغيرهما من قبائل . وحبسه في السجن حبسًا طويلًا فاعتل وكاد يتلف حتى سئل في أمره فاستتابه ، وكتب عليه وثيقة أشهد عليه فيها بطلان ما ادعاه .

وقيل أن أبا الطيب كتب إليه وهو في سجنه يقول :

فما لك تقبل زور الكلام وقدر الشهادة قدر اليهود
وكن فارقا بين دعوى أردت ودعوى فعلت بشاؤ بعيد

وقد جاء ذلك في رواية رواها من يدي معاذ بن اسماعيل ونقلها صاحب كتاب «الصبيح المنبى عن حياة المتنبي» بيد أن بعض الشراح الثقات يعتقدون أن أبا الطيب قال ذلك الشعر لأنهم كانوا قد وشوا به أنه يريد أن يأخذ البلد .

ويقول الثعالبي في يتيمة الدهر : « وبلغ من كبر نفسه ، بعد هيمته أن دعا إلى بيعته قوما من رآشي نبيلة على الحدائث من سنه ، والغضاضة من عوده وحينئذ يسم له أمر دعوته نقل خبره إلى وإلى البلدة ورفع إليه ما هم به من الخروج فأمر بحبسه وتقييده » .

ومعنى هذا أن السبب في سجن المتنبي لم يكن ادعاء النبوة وإنما كان السبب بعد مطامعه ، وكبر آماله حتى ظن وإلى حمص به السوء ، وحسب أنه سينزعه من ملكه .

وهكذا كانت الروايات متناقضة في أخبار ادعائه النبوة ، غير أن ابن الأثير وغيره ممن رووا أخبار المتنبيين ، لم يذكر أحد منهم دعوى أبي الطيب في النبوة .

ويظهر أن مؤرخيه ادعوا نبوته لأنه كان واسع الآمال ، كبير المطامع ، كما يبدو أن رواية التنبؤ كانت فرية تلصق بكثير من الناس مثلاً كانت فرية الزندقة تلصق ببعض الكتاب والشعراء في عهد العباسيين .

ويقول ابن جنى وهو من أكبر شراح ديوان المتنبي : أن الناس لقبوه بالمتنبي عندما قال :

ما مقامى بأرض نخلة إلا كمقام « المسيح » بين اليهود
أنا قرب الندى ورب القوافى وسمام العدى وغيظ الحسود
أنا في أمة تداركها الله في غريب كصالح في ثمود

ونحن لانستبعد هذا الرأي ، فليس لدينا ما يثبت اثباتا قاطعا أن أبا الطيب ادعى النبوة .

المهم أن أبا الطيب عندما خرج من سجنه هام على وجهه في البلاد واتخذ الشعر وسيلة للاستجداء والوصول الى العطايا والهبات ، فمدح محمد بن زريق الطرسوسي بقصيدة مطلعها :

هذي برزت لنا فهجت رسيما
ثم اثنتيت وما شفيت نسيما
فوصله عليها بعشرة دراهم ، فقبل له أن شعره حسن ، فقال :
ما أدري ، أحسن هو أم قبيح : ولكن أزيد له لقولك عشرة دراهم ، فكانت
صلته عليها عشرين درهما .

ومدح المتنبي على بن منصور الحاجب بقصيدة من روائع شعره
فأجازه عليها بدینار ، ولذلك سميت القصيدة الدينارية ومطلعها :

بابي الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلابيما

وما زال أبو الطيب يمدح هذا مرة وذاك مرة حتى اتصل ببي
العشائر وإلى انطاكية ، وقدمه أبو العشائر إلى سيف الدولة الحمداني عام
٢٣٧ هـ ، واثنى عليه ثناء مستطابا ، وعرفه منزله في الشعر والأدب ،
ومنذ ذلك الوقت ازداد اتصال أبي الطيب بسيف الدولة ، وكانت
مجالسه عامرة بالشعراء والأدباء ، وكان يسبغ عليهم الرغد والعطاء فأتوا
إليه من كل صوب ، وتجمعوا حوله من كل حذب ، وفي ذلك يقول
الثعالبي في اليتيمة : « وحضرته مقصد الوفود ، ومطليح الجود ، وقبله
الأمال وموسم الأدباء وخليه الشعراء ، ويقال : انه لم يجتمع بباب أحد
من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ، ونجوم الدهر ، »

وقيل : ان المتنبي اشترط على سيف الدولة أول اتصاله به أنه
لا ينشده الا وهو جالس ، ولا يكلف تقبيل الأرض بين يديه ، فدخل
سيف الدولة تحت اشتراطه ، وظل المتنبي يسرق روائع شعره إلى سيف
الدولة نحو تسع سنين ، وسيف الدولة لا يتوانى عن إجازته واغداق
المنعم عليه . حتى انه كان يعطيه كل سنة نحو ثلاثة آلاف دينار ما عدا
الخيول والجواري والخلع والجوائز والاقطاعات . ولكن هذه النعمة لم تدم
طويلا ، إذ ما لبث الحسد أن نما في قلوب غيره من الشعراء فوشوا به
لدى سيف الدولة ودبت القطيعة بين المتنبي وسيف الدولة بعد أن صاغ
فيه درر قصائده ، وكان أول قصيدة أنشدها أيها قوله :

وفاؤكما كالربع أشججاه طاسمه بأن تسعدا والدمع أشفاه ساجمه

وأخر قصائده لسيف الدولة مطلعها :

عقبى اليمين على عقبى الرغى ندم ماذا يزيدك في اقدامك القسم ؟

وقد أنشده الأولى عام ٣٧٧ هـ . والأخرى عام ٣٤٥ هـ .

هذا وقد كان سيف الدولة مغرما بشعر أبي الطيب ، راغبا في أن

يسمح كل حين قصيدة من شعره ، فأوغر ذلك صدور غيره من الشعراء ،
ومما زاد من حسد الشعراء له أنه كان يتصالي عليهم بشعره ، ويزهو
بقرضه وفي هذا يقول :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعرا أصبح الدهر منشدنا
وسار به من لا يسير مشعرا وغنى به من لا يغنى مفردا
اجزنى اذا أنشدت شعرا فانما بشعري أناك المادحون مرددا
ودع كل صوت غير صوتي فأننى أنا الصائح المحكى والآخر الصدى
ويتعرض أبو الطيب فى شعره الى حسد الشعراء له فيقول :

وللحساد عذر أن يشحوا على نظر اليه وان ينوبوا
فانى قد وصلت الى مكان عليه تحسد الحق القلوب
وكان المتنبي يرجو أن يقطعه سيف الدولة ولاية يتولى أمرها بيد
أن سيف الدولة لم يحقق له رغبته ، بل انه ترك الشعراء يحسدونه
ويوقعون فيه ، ويضربونه ، وهو لا يحرك ساكنا ، فعسول على فراقه
وانحدر الى دمشق ثم الى الرملة ، واتصل بأمرها الحسن بن طنج فهدده
جماعة من العلويين ، ففادر الرملة وقدم على كافور الاخشيدى .

وروى بعضهم أن المتنبي رحل الى العراق بعد خدمته لسيف الدولة
بن حمدان فى حلب ، فأقام فى البرية ، وسئل عن ذلك فقال : « ان بنى
حمدان كدروا خاطرى ، فبكت اريحة » .

وقيل : انه كان يلمشق رجل يهودى من أهل تدمر يعرف بابن
ملك يقوم بأمر كافور الاخشيدى والى مصر فسأل المتنبي أن يمدحه فنقل
عليه ذلك ولم يفعل ، فغضب اليهودى ، وجعل (كافور) يكتب فى طلب
المتنبي ، فكتب اليه بذلك فقال المتنبي :

ولا أقصد العبد وان دخلت مصر ، فما قصدى الا ابن سيده وذلك
لأن كافور الاخشيدى كان عبدا خصيا ، وكان من موالى محمد بن طنج
الاخشيد ، ثم ذهب المتنبي بعد ذلك الى الرملة فأرسل اليه كافور رسولا
يستقلمه ، ويظهر أن المتنبي استجاب لدعوة هذا الرسول طمعا فى أن
يظفر من كافور بولاية . قوى وجهه شطر مصر ، واستهل مديحه بقصيدة
مطاميرها :

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا وحسب المنايا أن يكن أمانيا
وفى حنى كافور نال المتنبي مرة ثانية العطايا والهبات ، إذ كان
كافور محبا للعلماء والأدباء يفتق عليهم قى بذل وسخاء ، وممن كان فى
صحبته أبو اسحق ابراهيم بن عبيد الله النجرمى صاحب الزجاج
النحوى ، كما كان فى صحبته من الشعراء غير أبى الطيب - الشاعر
الناشئ - وغيره من الشعراء وكان يرسل كل ليلة عيد حمل بقل دراهم
فى صرر بأسماء من أرسلت اليهم من العلماء والزهاد والفقراء ، فعنم

المتنبى فترة من الزمن بهذه النعم ، بيد أن آماله التى كانت تقلقه وتؤرقه حالت بينه وبين الاستمرار فى هذه الحياة ، فهو يطلب من كافور أن يمنحه إحدى الولايات ، وكافور لا يحقق له هذه الأمنية . فيسوق له المتنبى قصيدته المعروفة التى مطلعها :

المولى حل فى الكأس فضل أناله فانى أغنى منى حين وتضرب
ويقر من وجهه ، ولكنه قبل مغادرة مصر يسوق إليه أقذع قصائد
الهباء ، ويذكر أبو الطيب أنه دخل مرة على كافور فوجده حافيا ، ورأى
شقوفا فى قدميه فقال :

أريك الرضا لو اخفت النفس خافيا وما أنا عن نفسى ولا عنك راضيا
أميئا وأخلاقا وغدرا وخسة وجينا أشخصا لحت لى أم مخازيا
وتعجبني رجلاك فى النعل أنتى رأيتك ذا نعل وإن كنت حافيا
وقبل رحيله عن مصر بليلة واحدة قال قصيدته المشهورة التى
مطلعها :

عيد بأية حال عنت يا عيد بما مضى أم لامر فيك تجديد
أما الأحبة فالبيداء دونهم فليت دونك بيما دونها بيد
وفر المتنبى إلى الكوفة ثم رحل إلى بغداد وهناك ترفع عن مدح
الوزير المهلبى فاغتاط المهلبى لذلك وحرص عليه الشعراء الذين تباروا
فى هجائه والسخرية منه والتهكم عليه ، فلم ينزلهم المتنبى ، بل عرض
سمعه عنهم ، وحدث أن راسله ابن العميد من أرجان فى ذلك الوقت ،
خولى وجهه شطره ، ومدحه بقصائد شتى ، ثم اتصل بعضد الدولة
بشيراؤ .

وكان الصاحب بن عباد طمع فى زيارة المتنبى أيضا فى «أصبهان»
واعتباره كمن قصدهم من الولاة والكبراء ، فأرسل إليه يستقدمه ويطلب
منه أن يمدحه بقصيدتين ووسط رجلا من وجوه التجار فقال أبو الطيب
للموسيط : قل لأبى اسحق والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ،
ولا أوجب على أحد فى هذه البلاد من الحق ما أوجبه وأنا أن مدحتك
تنكر لك الوزير - يعنى المهلبى - وتغير عليك لأننى لم أمدحه ، فإن كنت
لا تبالي هذه الحال ، فأنا أجيبك إلى ما التمسيت وما أريد منك مالا ، ولا
عن شعري عوضا !

فحزت هذه الرسالة فى نفس الصاحب بن عباد فمادفه إلى التبرص
به . ثم حرص عليه النقاد ، وجعل لا يذكره باسمه فى كتابه ، ولا يتحدث
عن شعره إلا حين يريد التمثيل بالشعر القبيح كقوله فى بيت من قصيدة
رثى بها أم سيف الدولة :

حسلة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال
وقد قال بعض من طعنوا فيه: هذه استعارة ، فقلت صدقت ولكنها

استعادة حداد في عرس ! ولما أحب تقريظ المتوفاة ، والافصح عن أنها من الكريمات أعمل دقائق فكره ، واستخرج زيد شعره ، فقال :

ولا من في جنازتها تجار يكون وداعهم خفق النعمان
واتصل المتنبي بعد ذلك بمضد الدولة في شيراز فنجحت سفرته ، وربحت تجارتها في حضرته ، ووصل اليه من صلاته أكثر من مائتي ألف درهم ، واستطاب المتنبي الحيسة في رحابه والتنعم بين أكتافه ، ثم استأذنه بالسفر لقضاء بعض الأمور فأذن له بعد أن نفقه بالمال الكثير ، وخلع عليه الخلع العظيمة ، وفي أثناء مسيره مع ابنه « محمد » وغلame ، ومعه بغال موقرة بالذهب والفضة ، والنقائس ، والهدايا انقض عليه قوم من بني ضبة وما زالوا يضربونه ضربا مبرحا حتى مات .

وجاء في « الصبح المنبي » أن أناسا ذهبوا الى أبي نصر محمد الجبلي يسألونه عما صدر لأبي الطيب بعد مفارقتة عضد الدولة ، وكيف كان قتله ، فأتاهم جوابا طويلا يقول في أثنائه :

أما ما سألتم عنه من خبر مقتل أبي الطيب المتنبي ، فأنا أسبوقه لكم وأشرحه شرحا بينا . اعلما أن مسيره كان من واسط يوم السبت لثلاث عشرة بقيت من رمضان سنة ثلثمائة وأربع وخمسين ، فقتل بضبعة تقرب من دير العاقول لليلتين بقيتا من شهر رمضان ، والذي تولى قتله وقتل ابنه وغلame رجل من بني أسد يقال له فاتك بن أبي جهل ، وكان من قول فاتك لما قتله « قبحا لهذه اللحية يا قذاف المحصنات » وذلك أن فاتكا هذا هو خال ضبة بن يزيد العيني الذي هجاه أبو الطيب فاقذع .

وبقتل المتنبي فقد الشعر العربي علما من أعلامه في القرن الرابع الهجري لا يزال شعره مضرب الأمثال حتى وقتنا هذا .

ولقد اجتمعت في شعر أبي الطيب صفات شتى جعلته شعرا ممتازا في أغلبه : فهو رصين الدباجة ، قوى العبارات ، مبتدع للمعاني ، يدل شعره على نبوغ وعبقرية وعلم باللغة وأسراها .

وقد حكى الحسائني أنه ناظر أبا الطيب ببغداد فلم يقتصر على مناظرته في الشعر ، بل ناظره في اللغة أيضا ، وحكى أن أبا الطيب قال له : اللغة مسلمة لك فقال : وكيف تسلمها وأنت أبو عنزتها وأولى الناس بها ، وأعرفهم باشتقاقها ، والكلام على إفانيتها وما أحد أولى بأن يسأل عن غريبها منك .

ولما وقع الجدل بين أبي الطيب وابن خالويه في اللغة أمام سيف الدولة الحمداني انتصر أبو الطيب على ابن خالويه مع ما كان يعرف عنه من طول . باعه في اللغة .

ومن يقرأ شعر المتنبي يجده صاحب ثقافة لغوية سليمة ، ولعل ذلك يرجع الى تلك الفترة التي قضاه في بادية السماوة ، فاخذ أسرار اللغة عن الاعراب دون تزويق أو تجميل .

كما أن من يقرأ ديوان المتنبي يدهشه ما اتصف به المتنبي من
حكمة صادقة وفكر ثاقب ، ورأى مستثير .

تأمله وهو يقول فى فلسفة الحياة :

عش عزيزا أو مت وأنت كريم بين طعن القنا وخفق البنود
فرعوس الرماح أذهب للغيظ ——— ظل وأشقى لفل صدر الحقود
ثم تأمله وهو يقول فى فلسفة الأمم :

اعلى الممالك ما يبنى على الاسل والطعن عند محبيهن كالقبيل
وانظر الى حكمته فى هذه الأبيات :

إذا غامرت فى شرف مرور فلا تقنع بما دون النجوم
فطعم الموت فى أمر حقير كطعم الموت فى أمر عظيم
يرى الجبناء أن المجز عقل وتلك خديعة الطبع اللثيم
وكل شجاعة فى المرء تفنى ولا مثل الشجاعة فى الحكيم
واقرا تلك الأبيات التى جرت مجرى الامثال وتناقلها الناس جيلا
بعد جيل ، وانحدرت من ثغور الشيوخ الى ثغور الشباب كقوله :

وإذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الاجسام
وقوله :

ان السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع
وقوله :

ولم أر فى عيوب الناس شيئا كنقص القادرين على التسام
وقوله :

وكل امرئ يولى الجميل محبب وكل مكان ينبت العز طيب
وقوله :

ومن ينفق الساعات فى جمع ماله مخافة فقر فالذى فعل الفقر
وأوتى المتنبي موهبة صافية فى الوصف سواء أكان الوصف
متصلا بوصف الطبيعة والمناظر الخلابة أم بوصف المارك الحربية ووقائع
الفروسية والقتال .

فقال فى وصف شعب بوان الذى مر به فى أثناء سيره لعضد
الدولة فى شيراز :

غدونا تنفض الاغصان فيها على أعرافها مثل الجمان

فسرت وقد حجب الحر عني وجئن من الضياء بما كفاني
والقى الشرق منها في ثيابي دفائرا تفر من البنسان
لها ثمر تشير اليك منه بأشربة وقفن بلا أوان
وأمره تصل بها خصاما صليل الحل في أيدى الغواني

ولكن المتنبي في وصف الطبيعة مقل ، ولا تكاد نعثري في ديوانه الا على بضعة أبيات في هذا المضمار فلم تكن تستهويه الأنهار والبحار ، والقفار والرياض قدر ما تستهويه المعارك الحربية ومواقع القتال ، وقد بلغ المتنبي في وصف الوقائع الذروة ، وقد دفعته حروب سيف الدولة وانتصاراته الباهرة الى التغنى بهذه الفاخر في شعره ، فقال يخاطب سيف الدولة :

تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثرثرك باسم
تجاوزت مقدار الشجاعة والنهي الى قول قوم انت بالغيث عالم
ضممت جناحيهم على القلب ضمة تموت الخوافي تحتها والقوادم
بضرب أتى الهامات والنصر غائب وصار الى اللبسات والنصر قادم
ويلاحظ الباحث في ديوان المتنبي كثرة زهوه وفخره فهو يقول :
لا يقسومي شرفت بل شرفوا بي وبغسي فخرت لا بجودى
وبهم فخر كل من تطق الضما د وعود الجاني وغوث الطريد
وهو يقول في موضع آخر :

أى محل ارتقى أى عظيم اتقى
وكل ما خلق الله وما لم يخلق
محتقر في همتي كشجرة في مغرقى

بل أنه يستصغر شأن الناس ، ويقل مقدارهم في عينه فيقول :

ودهر ناسه ناس صغار وان كانت لهم جثث ضخم
وما أنا منهم بالعيش فيهم ولكن معدن الذهب الرغام
ونظم أبو الطيب بعض الشعر في الغزل بيد أنه غزل صناعي لا يدل على حب متغلغل في القلب أو عشق متيم به الفؤاد ، واشتهر المتنبي بنزله في الأعرابيات كقوله :

من الجارذ في زى الاعارب حمر الحل والمطايا والجلاليب
ومما نلاحظه على شعر المتنبي أن بعض معانيه خافية لما في شعره من التقديم والتأخير والمبالغة والتهويل ، والغرابة في التعبير أحيانا ،

واستخدام بعض الألفاظ القديمة بيد أن هناك كثيرا من المشابه في معانيه
بينه وبين أرسطوطاليس فأرسطو يقول :

(الأشكال « لاحقه بأشكالها كما أن الاضداد مبادئة لأضدادها »
فيقول المتنبي :

وشبه الشيء متجنب إليه واشبهنا بدتيانا الطغام
ويقول أرسطو « على قدر بصيرة العقل يرى الانسان الأشياء ،
فالسالم للعقل يرى الأشياء على قدر حقائقها ، والنفس البليمة ترى
الأشياء بطبعها ، ويقول المتنبي :

ومن يك ذا فم من مريض يجد مرا به الماء الزلالا

ويقول أرسطو : على قدر الهم تكون الهموم •

ويقول المتنبي :

أفاضل الناس أغراض لذا الزمن يخلو من الهم اخلاهم من الفطن

ويقول أرسطو : كره ما لا بد من كونه - عجز في صحة العقل •

ويقول المتنبي :

نحن بنو الموتى فما بالناس نعاف ما لا بد من شربه

ويقول أرسطو : النفس الذليلة لاتجد ألم الهوان ، والنفس العزيزة

يؤثر فيها يسير الكلام •

ويقول المتنبي :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت ايلام

وزعم قوم أنه كان يعرف اليونانية وأنه اخذ كلماته الجوامع من
أرسطوطاليس ، وزعم آخرون أنه لم يعرف اليونانية وأن ما توافق من
أفكاره مع أرسطو طاليس إنما كان توارد خواطر •

وعندي أنه سواء أصح القول الأول أم الآخر فان شعره يدل على

عبقريه ونبوغ •

قال ابن رشيق القيرواني في كتاب العمدة وهو يتكلم عن كبار
الشعراء : « ثم جاء المتنبي فعلا الدنيا وشغل الناس » وقال ضياء الدين
ابن الاثير في كتاب « الوشى المرقوم » : « وكنت قد سافرت الى مصر سنة
ست وتسعين وخمسائة ورأيت الناس منكبين على شعر أبي الطيب المتنبي
دون غيره ، فسألت جماعة من أدباؤها عن منيب ذلك فقلت : ان كان لان
أبا الطيب دخل مصر فقد دخلها قبله من هو مقدم عليه ، وهو أبو نواس
الحسن بن هانيء ، فلم يذكروا لي في هذا شيئا ، ثم اني فاوضت عبد
الرحيم بن علي البيسانى (القاضي الفاضل) رحمه الله في هذا فقال لي :
ان أبا الطيب ينطق عن خواطر الناس ، ولقد صدق فيما قال • »

وقال ياقوت الحموي : « وكان أبو العلاء يتعصب للمتنبي ، ويزعم أنه أشعر المحدثين ، ويفضله على بشار ، ومن أتى بعده مثل أبي نواس وأبي تمام ، وكان المرتضى يبغض المتنبي ويتعصب عليه ، فجرى يوما بحضرته ذكر المتنبي فتنقصه المرتضى ، وجعل يتتبع عيوبه ، فقال المعري : لو لم يكن للمتنبي من الشعر الا قوله لك يا منازل في القلوب منازل » لكفاء فضلا ، فغضب المرتضى ، وأمر فسحب برجله ، وأخرج من مجلسه ، وقال لمن حضرته : أتدرون أى شيء أراد الأعمى بذكر هذا البيت من قصيدة له ، فان للمتنبي ما هو أجود منها لم يذكرها ؟ فقيل : النقيب السيد أعرف ، فقال أراد قوله في هذه القصيدة :

وإذا أتتك منمتى من ناقص فهي الشهادة لى بأنى كامل

وتدلنا هذه الرواية على دلائل كثيرة منها : ان أبا العلاء المعري وهو شاعر حكيم لا يشك في رأيه ، ولا يرتاب في حكمه كان من أشد المجيبين للمتنبي ، وهذا مما يرفع قدره ، ويعلى شأنه ، ومنه أن المرتضى كان يحفظ شعر المتنبي ويعرف أبيات قصيدته بيتا بيتا وهذا يدل من جهة أخرى على ذبوع شعر المتنبي وعلو قدره بين معاصريه .

ويقول أبو الفتح بن جني : « وإن كان في بعض ألفاظه تعسف عن القصد في صناعة الإعراب ، من التمسك بأهداب شاذة أو حمل على نادر فعن غير جهل كان منه ، ولا قصور عن اختيار الوجه الأعرف له ، ومن هنا تشبث قوم لا دراية لهم بعلم العربية بأشياء من ظاهر لفظه اذ لم يكن لهم خبرة بدخيلة أمره . وحقا أقول : لقد شاهدته على خلق قلما تكامل الا لعالم موفق ، وأما اختراعه للمعاني وتغلغله فيها ، واستيقاؤه إياها فما لا يدفعه الا ضد ، ولا يستحسن معاندته الا ند » .

وقال ابن شرف القيرواني المتوفى عام ٤٦٠ هـ : « وأما المتنبي فقد شغلت به اللسن ، وسهرت في أشعاره الأعين ، وكثر الناسخ لشعره ، والآخذ لذكره ، والفاغص في بحره ، والمفتش في قعره عن جماله ودره » .

وقال الشريف الرضي : « أما أبو تمام فخطيب منير ، وأما البحتري فواصف جؤزر وأما أبو الطيب المتنبي فقاتل عسكر » .

وصفوة القول أن المتنبي كان عملاقا من عمالقة الشعر في الأدب العربي ، وكان يمثل ثقافة واسعة متعددة الألوان تجمع بين الثقافة القديمة والجديدة ، وتمثلت في شعره تيارات مختلفة من المعارف ، وكان يصطنع الأسلوب الفلسفي في شعره ، والعبارة الصوفية والأفكار بعضها عربى والآخر أجنبى وشاراتها أرضاء للمتصوفة وأصحاب التشيع ، كما كان يستخدم الرمزية للدلالة على أفكاره لأرضاء هؤلاء المتصوفة ، ويطلق في أفكاره اطالة ملحوظة تدل على براعته وتمكنه من التحكم في صروف البيان .

وقد جمع ديوان المتنبي ونشر أكثر من مرة ، ومن شروحه التي بقيت شرح ابن جني المتوفى عام ٤٩٣ هـ في ثلاثة مجلدات وقد ذكره صاحب

كشف الظنون ، ومنه نسخة خطية في مكتبة بطرسبرج ، وأخرى في مكتبة الاسكوريال ، وشرح ديوان المتنبي ابراهيم الاقيلي (المتوفى عام ٤٤٩ هـ) ومنه نسخة في مكتبة برلين ، وشرحه كذلك أبو العلاء المعري المتوفى عام (٤٤٩ هـ) ومن شرحه نسخة في مكتبة المتحف البريطاني ، وأخرى في مكتبة بطرسبرج ، وشرحه الواحدى المتوفى عام (٤٦٨ هـ) وطبع في بمباى بالهند عام ١٢٨١ هـ وفي أوزيا عام ١٨٦١ م ، وشرحه التيريزى (المتوفى عام ٥٠٢ هـ) ومنه نسخة في باريس ، وشرحه العكبرى (المتوفى عام ٦١٦ هـ) وطبع في بولاق بمصر عام (١٨٦٠ م) . وهناك نسخ أخرى في مكتبات أوروبا وليس عليها اسم الشارح ، ونشر بطرس البستاني ديوانه وعلق حواشيه وتم طبعه عام ١٨٦٠ م ، وللإزجى شرح لديوان المتنبي نشر في بيروت أكثر من مرة ، كما نشر سليم ابراهيم الديوان ووقف عليه أحد العلماء للتدقيق فعلق حواشيه وفسر كلماته اللغوية ونشره عام (١٩٠٠ م) ، ونشرت لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٤٤ م (١٣٦٣ هـ) ديوان المتنبي معتمدة على أقدم النسخ وأصحبها ، وتمتاز هذه الطبعة بزيادات في الشئسعر ومقدمات للقصاصد كتبها المتنبي نفسه ، وتعليقات قيمة للشاعر نفسه ، وقد صححها وقارن نسخها ، وجمع تعليقاتها المرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام .

وعنى غرانجرية بترجمة شئسعره الى الفرنسية ، كما عنى ديترش وهامر ، وجونبول بالكتابة عنه ونقد شئسعره ، وعنى جونبول بترجمة بعض شعره الى اللاتينية عام ١٨٤٠ ، وألف المستشرق الفرنسي بلاشير كتابا عنه كما كتب مادة « للمتنبي في دائرة المعارف الاسلامية » .

من القرن الخامس الهجرى

ابن مسكويه مفكر اسلامى جليل

حفل التاريخ الاسلامى بعدد كبير من المفكرين الذين ضربوا بسهم صائب في ميدان المعرفة ، ورسموا الطريق الى السعادة الدنيوية والاخرية ، فكانوا بحق من أبرز علماء الأخلاق في العالم أجمع وأصبحت أفكارهم مرجعا لأهل الفكر في الغرب ينهلون من مواردها العذبة ، ويعيون من غديرها السلسبيل ، ومن هؤلاء المفكرين الاسلاميين - العالم الجليل ابن مسكويه الذى عاش في أواخر القرن الرابع الهجرى وأوائل القرن الخامس ، أما سنة ولادته فمختلف فيها ، وسنة وفاته ٤٢١ هـ في أكثر المراجع .

وترجع أهمية ابن مسكويه الى أنه عنى بتلوين التاريخ الاسلامى ، وحاول ألا تقوته شاردة أو واردة فيه ما استطاع الى ذلك سبيلا ، فكتب « تجارب الأمم » وهو سفر ضخم في ستة أجزاء استهله بتاريخ الخليقة وانتهى فيه الى عام ٣٦٩ هـ .

ويعد كتاب تجارب الأمم مصدرا أساسيا لتاريخ بنى بويه في العصر العباسى اذ تتبع فيه تاريخ البويهيين في دقة وإخلاص - ولم يكتف بالسرود والقصة انما غاص الى الأعماق . فانتقدهم في صراحة لا تخلو من شدة ، وذكر مواطن المؤاخنة من خوف أو تردد ، ولم ينس في أثناء ذلك كله أن يشيد بمواضع الفخر ومواطن الإعجاب . وقد حكم عقله في التاريخ ، ومن هنا كان ابن مسكويه يختلف عن ابن جرير الطبرى في كتابة أخبار الرسل والملوك اذ كان يكتفى بالرواية دون النقد والتعليل .

بيد ان ابن مسكويه نهج نهج ابن جرير الطبرى في ذكر الحوادث على حسب السنين ولم يستطع التخلص من هذه الازمة في عرضه التاريخي .

وعندما تعرض ابن مسكويه لسيرة النبى عليه السلام والخلفاء الراشدين كان يقف وقفات جلية تكشف عن مواطن العزة والكرامة ، ويعرض صور البطولة في اطار خلاب جذاب ، يستهوى النفوس ويستحوذ على القلوب ، ولا يتحرج من الاعتراف بأخطاء الحكام في الدولة الاموية مما أدى الى سقوطها وقيام الدولة العباسية على أنقاضها .

ولم تات أهمية ابن مسكويه من جهده في تدوين التاريخ الاسلامى فحسب انما أتت كذلك من كونه عالما أخلاقيا من الطراز الأول،

آمن بفكرة الفضيلة إيماناً قوياً فدعا إليها وأشربها وحرص عليها في كل ما يكتب ويقول .

ولقد مكنته عقيدته الدينية التي تدعو في سداها ولحمتها إلى الفضيلة من الصمود في الدعوة إليها والعمل على نشرها بكل طريقة مستطاعة .

والفضيلة في نظره مقترنة باللذة والسرور ، فالرجل الفاضل يجد لذة لاتعدلها لذة ، ويساويه سرور لا يساويه سرور عندما يفعل الفضيلة . مثله في ذلك مثل الفنان الموهوب الذي يعزف على قيثارة فيجد في النغم الحلو ، واللحن الطروب لذته الكبرى ، أو مثله كالبناء الماهر الذي يجد في الصرح الشامخ ، والبنيان السامق عقب الفراغ منه سروره الأكبر وسعادته القصوى ، فالرجل الفاضل لا يفعل الفضيلة تحت تأثير لون من الضغط أو ضرب من الاكراه ، أو نوع من الحتمية أو الالتزام ، إنما يفعلها وهو يشعر بنوع من الحب نحوها .

واللذة متصلة كل الاتصال بالفضيلة ، ولا يمكن أن تنفصل عنها بآية حال ، وفي هذا يقول ابن مسكويه : « وليست تظهر لذة السعيد إلا بابرار فضائله ، وإظهار حكمته ووضع كفايته في موضعها ، وكذلك البناء الحاذق والصانع الماهر ، والموسيقي المحسن » .

وإذا كان ابن مسكويه يعتبر الفضيلة لونا من اللذة أو هي اللذة بعينها ، فإنه لا يطلق الباب أمام هؤلاء الذين يرنون إليها ويطمعون فيها ، ويعرضون على الاستئثار بها فيقول أن الفضيلة مكتسبة بمعنى أن الناس يستطيعون أن يكونوا فضلاء ، ويستهل القضية من بدايتها فيقول : إن نفس الصبي لا تولد على صورة مخلوقة أو هيئة معينة إنما هي قابلة للتشكل بحسب ما يحيط بها من الظروف الخارجية وبحسب ما تروض عليه من العادات ، فهي في ذلك مثل قطعة الشمع التي تتشكل كيفما برد صاحبها ، أو قطعة الصلصال التي يكيفها المثال كيفما هوى وشاء . ولذلك لا بد من العناية بنفس الصبي وعدم تركها نهبا للجوار الفاسد أو الوسط الموبوء . فتتسرب إليها الرذيلة عن طريق المخالطة أو المجالسة والمؤانسة .

وهذا المعنى نفسه هو الذي أشار إليه الرسول الكريم في مجاورة الجليس الصالح وجليس السوء . فالأول كحامل المسك والآخر كنافخ الكبر إما يحرق ثيابك أو تصيبك منه ريح خبيثة . وليس من شك في أن الأذى الذي يصيب الصبي من نافخ الكبر هو الرذيلة في مختلف صورها وشتى مظاهرها وإن ألسك الذي يصيب الصبي هو الفضيلة بعينها .

وأول شرط من شروط الفضيلة هو العلم بالشريعة في أول عهد الإنسان منذ طفولته لأن الطفل في هذه الفترة من العمر يكون أكثر استجابة للمعارف والعلوم وقديما قال الحكماء : « التعلم في الصغر كالنقش على الحجر » وفي هذا الباب يقول ابن مسكويه في تهذيب الأخلاق : « الشريعة هي التي تقوم الأحداث وتمودهم الأفعال المرضية ،

وتعد نفوسهم لقبول الحكمة وطلب الفضائل ، والبلوغ الى السعادة بالفكر الصحيح والقياس المستقيم » .

ويرى ابن مسكويه أن الهدف الأسمى الذي يجب أن يسعى اليه الإنسان الناضج العاقل هو السعادة القصوى إذ أنها الغاية التي لا غاية بعدها ، وكل فعل يقرب منها فهو خير ، وكل فعل يبعد عنها فهو شر . والسعادة القصوى هي الغرض الأخير والكمال الأقصى على حد تعبيره . وهي تؤثر لذاتها لا لغيرها ، وهي خير دائم مطلق لا يتعلق بشخص معين ولا بزمان معين أو زمان معين ، إنما هي واحدة في كل زمان ومكان . وهي الهبة وقدمية ، بيد أنها في طاقة البشر يستطيعون الوصول اليها والاستمتاع بها ، ويمكن الوصول الى هذه السعادة القصوى عن طريق نيل اللذات الحسية الخسيسة ، ويكون ذلك على مسيل التدرج لا على سبيل الاندفاع والانطلاق والنظر في أمور هذا الكون السفلي والعلوي والحقائق الأزلية فقال تعالى في كتابه العزيز في سورة يونس :

« قل انظروا ماذا في السموات والارض ، وما تفتى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون » وقال تعالى جل ثناؤه في سورة البقرة :

ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض آيات لقوم يعقلون » كما قال كذلك جل وعلا في سورة آل عمران :

« ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لاولي الألباب » .

فالسعادة القصوى أن يحقق الإنسان النظر الى تلك الحقائق العلوية والسفلية ويستخدم عقله في استجلاء كنه هذه الحياة وتحديد موقفه منها ، وفي ذلك يقول ابن مسكويه « السعيد التام هو الذي توافر حظه من الحكمة ، فهو يقيم بروحانيته بين المأل الأعلى يستمد منهم لطائف الحكمة ، ويستنير بالنور الإلهي ، ويستزبد من فضائله بحسب عنايته بها ، وقلة عوائقه عنها ، ولذلك يكون أبدا خاليا من الآلام والحسرات . . ويكون مسرورا أبدا بذاته مفتبها بحاله ، وبما يحصل له ، وإنما من فيض نور الأزل ، فليس يسر الا بتلك الأحوال ، ولا يقتبط الا بتلك المحاسن ، ولا يهش الا لظاهر تلك الحكمة بين أهلها ولا يرتاح الا لمن ناسبه وقاربه وأحب الاقتباس منه ، وهذه المرتبة أن وصل اليها فقد وصل الى آخر السعادات وأقصاها » .

وكان ابن مسكويه ينصح بمقاومة الغضب مقتفيا أثر الرسول الكريم حين قال : « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » لأن الغضب يدفع الإنسان الى ما لا تحمد عقباه ، والحلم هو الفضيلة المطلوبة وهي صحة النفس واستقامتها وأمراض النفس ثمانية : وهي التهور والجبن والشبه والجمود والسفه والبسلة والجور والمهانة ،

وهي أطراف مضادة للفضائل الكبرى الأربع وهي الحكمة والشجاعة
والعفة والعدالة .

هذه لمحات من آراء هذا المفكر الاسلامي الجليل ابن مسكويه الذي
كانت آراؤه مرجعا لكثير من علماء الاخلاق في أوروبا وطُبعت كتبه طبعات
مختلفة في الشرق والغرب ، فطبع كتاب تجارب الأمم في لندن عام ١٨٦٩
وعام ١٩٠٩ كما طبع في مطبعة «التمنن» بالقاهرة منذ سنوات أما كتابه
تهذيب الاخلاق فطبع في الهند عام ١٢٧١ هـ وطبع في مطبعة «التمنن»
عام ١٢٩٨ هـ وعام ١٢٩٩ هـ وعام ١٣١٧ هـ كما كتب الشيخ عبد
الكريم سليمان مقدمة لهذا الكتاب ونشره باسم تهذيب الاخلاق لابن
مسكويه في التربية وظهر عام ١٩٠٥ م

أما كتاب الفوز الأصغر فهو كتاب فلسفي لابن مسكويه قال فيه
الشيخ طاهر الجزائري : « بناء ابن مسكويه على أصول الفلسفة الالهية
وانتصر فيه للدين » وطبع في بيروت عام ١٣١٩ هـ وعام ١٣٢٥ هـ .

هنا وقد تأثر ابن مسكويه في آرائه بكثير من المؤلفين الاسلاميين.
يذكر منهم أبو حيان التوحيدى في كتابه الاقناع والمؤانسة ، والكندى ،
والفارابى الذى كتب عنه مخطوطا سماه « من كلام أبى نصر الفارابى » .
وقد جمع فيه كثيرا من الحكم والاقوال .

وكان الأستاذ الامام محمد عبده يدرس كتابه تهذيب الاخلاق
وتطهر الاعراق لطلبة الازهر ، كما تقرر تدريسه في مطلع القرن العشرين.
في مدرسة المعلمين الناصرية .

أسامة بن منقذ

أسامة بن منقذ فارس عربى ، يمثل الفروسية العربية فى أثناء الحروب الصليبية ولد فى ٢٧ من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ أى يوليو عام ١٠٩٥ وتوفى فى ٢٣ من رمضان ٥٨٤ هـ ، نوفمبر ١١٨٨ م ، لزم عماد الدين زنكى فى حروبه ؛ وعمل فى البلاط الفاطمى فى عهد الخليفين إلحافظ والظاهر ، واشترك مع نور الدين فى حملاته على الفرنج وعاش مع بنى أرتق فى حصن كيفا فى ديار بكر ، ثم عاش مع البطل صلاح الدين الأيوبى فى دمشق وكان وقت ذاك فى التسعين من عمره .

وكان والد أسامة رجلا تقيا يحفظ سورا من القرآن ، ويصرف وقته فى تلاوته واستنباط مواضع الحكمة فيه .

وحكى أسامة أنه كان مع والده ذات مرة وهو واقف فى قاعة طاره ، وإذا حية عظيمة قد أخرجت رأسها على إفريز رواق القناطر الذى فى الدار ، فوقف يبصرها ، فحمل سلبا كان فى جانب الدار ، وأسندته تحت الحية وصعد إليها وكان أبوه يراه فلا ينهاه ، فأخرج أسامة سكيننا صغيرا من وسطه وطرحه على رقبة الحية وهى نائمة وبين وجهه وبينها دون الذراع ، وجعل يحز رأسها ، وما زال يحزها حتى قطعه ، وألقى الحية داخل الدار وهى ميتة .

كما يحكى أسامة أنه خرج مع والده لقتال أسد على ظهر أحد الجسور فلما وصلا إلى الجسر حمل عليهما أسد من الاجمة التى كان فيها ، وشرع يحمل على الخيل ، ثم وقف وقد رضى على جرف النهر يتخبط بصدره على الأرض ويهدر ، فحمل عليه أسامة فصاح عليه والده ، لا تستقبله يا مجنون فياخذك . ولكن أسامة طعنه ، فما تحرك الأسد مكانه ، وكانت هذه المرة هى المرة الأخيرة التى نهى فيها والد أسامة ابنه عن القتال .

وهذه الحكايات تدل دلالة قاطعة على أن أسامة نشأ نشأة كلها شجاعة وبسالة واقلام مما كان له أبعد الأثر فى حياته فيما بعد .

وقد تلمذ أسامة على أبى عبد الله الطليطل أحد علماء النحو المشهورين فى هذا الوقت ، فدرس عليه اللغة عشر سنوات كاملة ويقول أسامة : انه دخل عليه يوما ليقرا عليه فوجد بين يديه من كتب النحو كتاب سيبويه ، وكتاب الخصائص لابن جنى وكتاب الايضاح لابن على الفارسى ، وكتاب اللمع وكتاب الجمل فقال له : يا شيخ عبد الله قرأت هذه الكتب كلها ؟ قال : قرأتها . . . لا والله الا كتبتها فى اللوح وحفظتها ، تريد تدرى؟

أخذ جزءا وأفتحه وأقرأ الصفحة جمعا حفظا ، حتى أتى على تلك الأجزاء جميعا ، فرأى أسامة منه أمرا عظيما ما هو في طاقة البشر .

وعاش أسامة فترة من حياته في مدينة (شيراز) وكان عمه أبو العساكر سلطان حاكما لشيراز فوكل اليه بعض الأعمال التي تتطلب الشجاعة والبسالة . وقد حفظ لنا شمس الدين أبو عبد الله الذهبي في كتابه « تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام » المشارك التي حضرها أسامة ومنها المارك التي اشترك فيها عماد الدين مع الخليفة المسترشد بالله عام ٥٢٧ هـ ، وكان عماد الدين في هذه المارك يناصر السلطان سنجر ابن ملكشاه الذي كان يعادى السلطان سعوذا ، وكان السلطان سنجر يحرض عماد الدين على غزو بغداد والاستيلاء على العراق ، وكان أسامة في عسكر عماد الدين ووصف لنا وصفا شائقا هذه المارك التي خاضها في شجاعه واقدام ، وظل أسامة يحارب في صفوف عماد الدين حتى اضطر الى الرجوع الى شيراز للدفاع عنها ضد جموع متحالفة من الفرنج والروم واستمر القتال بين الفريقين حتى وضعت الحرب أوزارها ، وتم الاتفاق بين جيوش ريموند صاحب انطاكية وجيوش جوسلين الثاني حاكم الرها وغيرهما من ملوك الروم والفرنج - وبين حاكم شيراز على أن ترحل جيوش الحلفاء عن شيراز ، وباتهاء الحرب وعقد الصلح أهدى بنو منقذ اليهم فيما أهده بعض الخيول .

ورحل أسامة بن منقذ بعد ذلك الى دمشق حيث اتصل بالوزير «معين الدين أنو» ولكن اتصالة بهذا الوزير لم يدم طويلا اذ سرعان ما ظهر لمعين الدين منافس خفي هو مؤيد الدولة أبو الفوارس المسيب بن علي بن الحسين المعروف بابن الصوفي وكان ينافس معين الدين في سلطته ونفوذه ، ويدبر المؤامرات للتخلص منه ، ففكر معين الدين في استخدام رجل من أهل دمشق يعينه على هذا المنافس ويكون أشد تفانيا في خدمته ، ففكر اليه « طحان الباروقي » فآثر هذا العمل في نفس أسامة تأثرا كبيرا فعول على ترك دمشق ، وأزمع الرحيل الى مصر ، وفي رحيله يقول أسامة : « ثم جرت أنساب أوجبت مسيرى الى مصر ، فضاع من حوائج دارى وسلاحى . ما لم أقدر على حمله وفرطت في أملاكى ، ما كان تكبى أخرى . كل ذلك والإمير معين الدين رحمه الله ، محسن مجمل ؛ كثير المتأسف على مفارقتى مقر بالعجز عن أمرى ، حتى أنه أنفذ الى كاتبه الحاجب محمود المسترشدى رحمه الله قال : « والله لو أن نصف الناس معى لضربت بهم النصف الآخر . ولو أن معى ثلثهم لضربت بهم الثلثين وما فارقتك ، ولكن الناس كلهم قد تماثلوا على وما لى بهم طاقة وحيث كنت فالننى بيتنا ، من المودة على أحسن حال » .

وكتب أسامة الى معين الدين يقول :

معين الدين كم لك طوق من بجيلى مثل أطواق الحمام
يعيدنى لك الاحسان طوعا وفى الاحسان رق للكرام
فصار الى مودتك انتسابى وان كنت العظامى العصامى .

ولكن يظهر أن معين الدولة وأسامة بن منقذ لم يكونا يظهران ما يبطنان ، إذ أن معين الدولة استخدم الياروقى بدلا من أسامة وأرسل أسامة بعد ذلك لمعين الدولة قصيدة كلها عتاب ولوم تستشف منها ضجر معين الدولة من أسامة وأسامة وعلمه من عشرته .

ووصل أسامة بن منقذ إلى مصر في ٢ من جمادى الآخرة عام ٥٣٩ (نوفمبر عام ١١٤٤) وكان معه والدته وزوجه وأخوه نجم الدولة أبو عبد الله محمد وعدد كبير من مماليكه وحشمه وقد قابله بالترحاب الخليفة الحافظ لدين الله (٥٢٤ - ٥٤٤ هـ) (١١٣٠ - ١١٤٩) فأنزل به دار الافضل وكانت تسمى دار الملك أو الدار السلطانية ، وشغل أسامة في مصر بالصيد وأعجب الخليفة بخبرته فيه حتى قال عنه : « وأى شيء شغل هذا إلا القتال والصيد » وأعطاه الحافظ لدين الله ساعة وصوله بعض الثياب ومائة دينار ، أما الدار التي منحه إياها فقد كانت في غاية الحسن ، « وفيها بسطها وفرشها ومرتبها كبيرة وآلتها من الذهب والحرير » .

وقد شهد أسامة بن منقذ الاحداث الخطيرة التي وقعت بمصر من اضطراب الامن والصراع بين الوزراء ويقول بعض المؤرخين : ان أسامة هو الذي أشار بقتل ابن السلام الذي خرج على الخليفة الظاهر .

ثم عاد أسامة إلى دمشق مرة أخرى ومنها إلى ديار بكر وقد وصف الحياة الاجتماعية والسياسية في هذه المناطق وصفا شائعا رائعا ، واشترك مع نور الدين في حروبه ضد الصليبيين كما اشترك مع صلاح الدين الایوبي في بعض غزواته ، واستدعاه صلاح الدين من حصن كيفا وأسامة في التسعين من عمره وأسكنه دارا في دمشق ، وفتح صلاح الدين اقطاعا من الارض فعادت الحياة تدب في أوصال الشيخ ونعم بشيء من الرفاهية والسعادة ، وأخذ يلقى المحاضرات في البديع ويدرس في المدرسة الحنفية في دمشق ، كما أخذ يدون ذكرياته دون تعمل أو تصنع في مذكراته المعروفة في التاريخ بكتاب الاعتبار وكتب في صدرها هذه الابيات :

إذا اكتئت فخطى جد مضطرب كخط مرتعش الكفين مرتعد

فأعجب للضعف يد عن حملها قلما من بعد حطم القنا في لبة الأسد

إذا مشيت وفي كفي العصا ثقلت رجلى كاني أخوض الوحل في الجلد

وغرضه من كتابة هذا الكتاب كما بينه هو « أن ركوب أخطار الحروب لا ينقص أجل المكتوب ، فأنني رأيت الدهر يوضع للمشجع العليل والجبان الجاهل أن العمر موقت مقدر ، لا يتقدم أجله ولا يتأخر » وأن الله مقدر الاقدار ، وموقت الآجال والاعمال ، وأنه يجب ألا يظن ظان أن الموت يقدمه ركوب الخطر أو يؤخره شدة الحذر » .

ويرجع الفضل في اكتشاف هذا الكتاب إلى المستشرق الفرنسي هارنوج دبرونورج (١٨٤٤ - ١٩٠٨) الذي عثر عليه في أسبانيا بين مخطوطات مكتبة الاسكوريال ، وفي عام ١٨٨٦ نشر هذا المستشرق الكتاب

فى لينن ، وفى عام ١٨٩٤ نشر ترجمة فرنسية له وفى عام ١٩٠٥ نشر
المستشرق ثومان هذا الكتاب بالالمانية وترجمه المستشرق سالىر عام
١٩٢٢ الى الروسية ، كما قامت جامعة كولومبيا بنشر ترجمته الانجليزية
عام ١٩٢٩ وفى عام ١٩٣٠ نشره فيليب حتى باللغة العربية فى الولايات
المتحدة وطبع بمطبعة جامعة برنستون .

ولاسامة غير .كتاب الاعتبار كتب أخرى متهاديوانه الذى يضم باقة
من أشعاره وكتاب المنازل والاديار ، وكتاب العصا وقد ذكر فيه أسامة
كل ما قيل فى العصا منذ عهد موسى عليه السلام ، وسليمان بن داود
حتى عصره ، وكتاب تاريخ القلاع والحصون ؛ وأخبار النساء والنوم
والاحلام ، والشيب والشباب ، والتامى والتسلى وأكثر هذه الكتب مخطوط
حتى الآن وفى حاجة الى أن ينشر ويخرج الى النور .

ابن الجوزى

هذا أديب مؤرخ عالم مصنف . ولد فى بداية القرن السادس للهجرة أو فى عام ٥٠٨ هـ على وجه التحديد ، ولد فى « مشرعة الجوز » من أعمال بغداد ولذلك سعى بابن الجوزى وألف عشرات الكتب فى شتى فنون الادب وعلوم الدين ومن مؤلفاته أسماء الضعفاء والواضعين من رجال الاحاديث فى علم الاحاديث وكتاب نزهة الاعين والنواظر فى علم الوجوه والنظائر ، ولقط المنافع فى الضرب والفراسة عند العرب ، وكتاب زاد المسير فى علم التفسير ، وكتاب فضائل القدس ؛ وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وكتاب الياقوتة فى الوعظ والارشاد ، وكتاب مناقب أحمد ابن حنبل ، وكتاب سيولة العقل على الهدى فى الاخبار ، وكتاب الذهب المتسبك فى سير الملوك ، وكتاب المقيم المقعد فى دقائق العربية وكتاب تلقيح مفهوم أهل الآثار فى مختصر السير والاخبار ، وكتاب المجتبى من المجتبى ، وكتاب الاذكياء ، وكتاب الخطاير . وله فضلاً عن هذا كتب فى سيرة الرسول عليه السلام وعمر بن الخطاب ، وعمر بن عبد العزيز وغير ذلك من الكتب والاسفار .

ويعتبر ابن الجوزى من أئمة العلماء فى الاسلام وكبار الوعاظ الذين صار الوعظ على أيديهم فنا له قواعده وله أصوله . . واتسمت مجالسه - وارتفعت أقدار رجاله وكان يحضر دروسه عدد غفير من الخلق ، بل إن الخليفة الناصر كان يتجامل على نفسه لحضور هذه الدروس ، وكذلك كان يفعل الخليفة المستضى الذى ألف له ابن الجوزى كتاباً أطلق عليه « المصباح المضى فى دولة المستضى » .

والطريف ان بابن الجوزى وصفَ هذه المجالس التى كان يعقدها بباب بدر فى بغداد اذ كانت تطلق أبواب المكان بعد الظهر لشدة الزحام ، واذا جاء بعد العصر فتح له الباب ، وزاحم معه من يمكنه أن يزاحم حتى قال أمير المؤمنين عنه : ما هذا الرجل آدمى بما يقدر عليه من الكلام . .

وروى أن الخليفة المستضى العباسى كان يسمع وعظه ذات مرة ، فالتفت الى ناحية وهو فى الوعظ ، وقال : يا أمير المؤمنين ، ان تكلمت خفت منك ، وان سكبت خفت عليك ؛ وان قول القائل لك - اتق الله - خير من قوله لكم ، انكم أهل بيت مغفور لكم ، وكان عمر بن الخطاب يقول اذا بلغنى عن عامل أنه ظلم فلم أغیره فأنا الظالم وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول : قرقر أو لا تقرقر ، والله لا ذاق عمر سخيتاً حتى

يخضب الناس • فبكي المستضيء وتصلق بمال كثير وأطلق المحبوسين وكسا خلقا من الفقراء •

وقد كان ابن الجوزي في خواتمه التي يرسلها في كتبه يغوص الى أعماق النفس الإنسانية ويصل الى خبايا القلوب ونبضات الاحساس ويتعرف على كنه الحقائق والدقائق التي تكمن بين طيات الصدور ، ويدرس بواعثها ودوافعها • وقال : ان الانسان اذا عرضت له جوانب الدنيا بلذاتها المحرمة انقاد اليها ، ومشى معها ولا يجد في ذلك مشقة أو تعباً واذا عرضت الآخرة بتكاليفها وقبورها لم يستطع الانقياد اليها الا بالمشقة البالغة والتعب الشديد ، وذلك لان مثل الطبع في ميله الى الدنيا كالله الجارى فانه يطلب الهبوط وانما رفعه فوق - يحتاج الى التكلف •

وقال : ان المؤمن ليس بالنبي يؤدي فرائض العبادات صورة ويتجنب المحظورات فحسب ، انما المؤمن هو الكامل الايمان ، ولا يخالج قلبه اعتراض ، ولا يساكن فيما يجري وسوسه ؛ وكلما اشتد البلاء عليه زاده ايمانه ، وقوى تسليمه •

وقال سبب صلاح الاخيار هو النظر واعنى به النظر العقلي أو الفكر والتدبير ، وسبب افعال الاشرار هو افعال النظر ، لان العاقل ينظر فيعلم انه لا بد له من صانع وان طاعته لازمة ، ويتأمل معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسلم فيسلم قياده الى الشرع ، ثم ينظر فيما يقربه اليه ، ويزلفه لديه •

زد على ذلك أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل « وتلك الايام نداولها بين الناس » فتارة فقر ، وتارة غنى ، وتارة عز وتارة ذل وتارة يفرح الموالي وتارة يحزن الاعالي ، فالسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال ، وهو تقوى الله عز وجل فانه ان استغنى زانته ، وان افتقر - فتحت له أبواب الصبر ، ان عوفي تمت النعمة عليه ، ولا يضره أن نزل به الزمان أو سعد ، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه ، لان جميع تلك الاشياء تزول وتغير والتقوى - أصلاً - السلامة وهي حارس لا ينأ •

وبنه ابن الجوزي كل ذي لب وفطنة بأن يحذر عواقب المعاصي ، فانه ليس بين آدمي وبين الله تعالى قرابة ولا رحم ، وانما هو قائم بالقسط • حاكم بالعدل ، وان كان حلمه يسمع الذنوب فانه اذا شاء عفا فعفا عن كل كثيف من الذنوب وان شاء أخذ باليسير فالحذر الحذر • • والله الله في مراقبة الحق عز وجل فان ميزان عدله تبين فيه الذرة ، وجزاؤه مراد للخطي ، ولو بعد حين ، وربما ظن انه العفو وانما هو امهال •

واستنكر ابن الجوزي بالرياء في العبادة وكان يرى ان أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم على حين كان سفيان الثوري يقول : « لا اعتبر بما ظهر من عبي » وكان السلف الصالح يسترون أنفسهم ، وكان أيوب السخيتاني من علماء القرن الثاني للهجرة يطول قميصه حتى يقع على

قديمه ويقول : « كانت الشهرة فى التطويل واليوم الشهرة فى التقصير ».

أما ابن الجوزى فيرى أن ترك النظر إلى الخلق ومحور الجاه من القلوب .
بالتعمل وإخلاص القصد وستر الحال هو الذى رفع من رفق • ويروى أن .
أحمد بن حنبل كان يمشى حافيا فى وقت ويحمل نعليه فى يده ويخرج
للمقاط ، أما بشر فكان يمشى حافيا على الدوام وحده وكان معروف يلتقط
النوى •

ولا يشير ابن الجوزى فى حديثه إلى وجوب اقتفاء أثر هؤلاء العلماء .
إنما يصور حالهم فى معرض «البراء فى العبادة وفى مجال آخر يدعو إلى
النظافة والعناية بالمظهر ويقول : أن خلقا كثيرا من الناس يهلون أبدانهم
فمنهم من لا ينظف قمه بالخلل بعد الأكل ومنهم من لا ينقى يديه ويفسها
ومنهم من لا يستاك ، ومنهم من لا يكتحل ومنهم من لا يراعى الإبط إلى غير
ذلك فى حين أمر الدين المؤمن بالنظف والاعتسال للجمعة لأجل اجتماعه
بالناس ، ونهى عن دخول المسجد إذا أكل الثوم وأمر الشرع بتقنية البراجم .
(مفصل الأصابع) وقص : لافظار والسواك والتطيب وغير ذلك من الأدب ،
واستنكر أن يهمل المؤمن أظفاره فيجمع تحتها الرسخ المانع للماء فى
الوضوء ، واستنكف السرار أو الدنو لحديث السر والريح الحبيثة تنصاعد
من الأفواه ، وقد : أن النبى صلى الله عليه وسلم كان أنظف الناس وأطيب
والناس ، ساقه ربما انكشفت فكانها جارة - وهى باطن جذع النخلة -
وكان لا يفارقه المسواك ، وكان يكره أن يشم منه ريح ليست طيبة .
وقالت الحكماء : من نظف ثوبه قل همه ، وقال عليه الصلاة والسلام
لأصحابه : « ما لكم تملحون على قلحنا - أى صفر الأسنان - امتاكوا » .
وقد فضلت الصلاة بالسواك على الصلاة بغير سواك • فالمنتظف ينعم نفسه ،
ويرفع فيها عقدها ، وقالت الحكماء : « من طال ظفره قصرت يده ثم أنه
يقرب من قلوب الخلق وتحبه الناس لنظافته وطيبه ، وكان النبى صلى الله
عليه وسلم يحب الطيب ، ثم أنه يؤنس الزوجة بتلك الحال ، فإن النساء
شقائق الرجال فكما أنه يكره ذلك منها فكذلك هى تكرهه ، وربما صبر
هو على ما يكره وهى لا تصبر » .

وقد تبين ابن الجوزى فضل العلم على الزهد بشرط أن يكون معه
العمل ، وإذا عظم نفسه خفيت عليه أخطاؤه ، وإن من العلماء من يقتى
بلا علم حفظا للمظاهر ولئلا يقال عنه أنه جاهل ، وأنه لا يفيد العلم إلا مع
ترقيق القلب ، فيجرب مزج الفقه والحديث بسير الصالحين •

هذه بعض آراء ابن الجوزى فى الآداب الإسلامية الرفيعة ، وله
فضلا عن ذلك آراء فى تربية النفس والصبر ومخالفة الهوى ، والصبر على
المرض والصلوات بين الرجل والمرأة والخوف والرجاء والتوكل والتشبيه
والتأويل والسعادة والعزلة والطب والصحة والمرض •

وهى آراء قيمة لها أثرها وخطرها فى مجالات المعرفة الإنسانية •

من القرن السابع الهجرى

القرطبي

تحتفل الامة العربية بعد شهور بذكرى عالم عربى مشهور وصاحب تفسير كبير وهو أبو عبد الله القرطبي مؤلف كتاب الجامع لاحكام القرآن وهو أشهر كتبه ، وعدة مؤلفات أخرى .

وكان عبد الله القرطبي من عباد الله الصالحين وشيوخه الورعين المتسكين الذين يخافون الله ويتبعون كتابه ، ويزهدون في الدنيا وينصرفون عن لذائذها ودنياتها ويكفون على عبادة الله والتقرب اليه

وعاش أبو عبد الله القرطبي في القرن السابع الهجرى في الاندلس وقضى أغلب حياته في مدينة قرطبة وهي احدى المدن العربية الشهيرة بمساجدها ومعالمها الاسلامية الخالدة .

ومنع أبو عبد الله القرطبي من الشيخ أبي العباس أحمد بن عمر القرطبي بعض شرحه لكتاب « المفهم » لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم ، وحدث عن الحافظ أبي علي الحسن بن محمد بن محمد البكري وحدث أيضا عبد الحافظ أبي الحسن علي بن محمد بن علي بن خصص اليحصبي وغيرهما .

ويمثل أبو عبد الله القرطبي هذه الطائفة من علماء التفسير في المغرب الذين لا تقل جهودهم في خدمة الاسلام ، وتفسير القرآن ، وعلم الحديث والفقه عن علماء المشرق ويصور حقبة خالدة من تاريخ العرب في هذه البلاد .

وقد جمع القرطبي في تفسير القرآن كتاباً كبيراً في اثني عشر مجلداً أطلق عليه « الجامع لاحكام القرآن والمبين لما تضمن من السنة وآي الفرقان » وهو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا ، وقد أسقط المؤلف من كتابه القصص والتواريخ وكثيراً من الاسرائيليات التي حفل بها التفسير عن كمبالاتها وذهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم ، وأثبت عوضاً عن ذلك احكام القرآن واستنباط الأدلة وذكر القراءات والاعراب والناسخ والمنسوخ .

وتفسير القرطبي يختلف عن تفسير الكشاف في حقن التنزيل الذي كتبه الزمخشري من أهل خوارزم العراق وجنح فيه الى مناقشة آراء المعتزلة موضحاً الفساد ومواضع الخطأ والخلل فيها . كما تعرض الى الناحية

البلاغة في القرآن الكريم ووضح مواضع الجمال في التشسيهات والاستعمارات والكنايات التي زخر بها الكتاب العزيز .

وقد قام شرف الدين الطيبي من أهل تبريز من عراق العجم في ذلك الوقت بشرح كتاب الزمخشري هذا وتبع آيه ، وبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة . وقد طار النقاش في الكتاب وشرحه حول الموضوعات البلاغية التي أثارها أسلوب القرآن الكريم على العكس من تفسير القرطبي الذي لم تثر فيه مثل هذه المسائل الصفحات الطوال ووجهات النظر المتعددة .

أما منهجه في هذا التفسير فهو إضافة الأقوال إلى قائلها والأحاديث إلى مصنفها إذ أنه من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله على حد تعبيره . وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهملاً لا يعرف من أخرجه إلا من أطلع على الحديث فيبقى من لا خبرة له حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم . ولا يقبل الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضاف إلى من أخرجه من الأئمة والأعلام والثقة المشاهير من علماء الإسلام .

وكان رائد القرطبي في هذا العمل الجليل الذي أقدم عليه قوله تعالى في كتابه العزيز « ما فرطنا في الكتاب من شيء » كما استشهد بقول الرسول صلى الله عليه وسلم « أن الله أهين من الناس » قالوا يا رسول الله من هم ؟ قال : هم أهل القرآن أهل الله وخاصته فما أحق من علم كتاب الله أن يزجر بنواحيه ويتذكر ما شرح له فيه ويخشى الله ويتقيه ويراقبه ويستحيه .

وروى القرطبي في هذا الكتاب بعض ما جاء في الآثار وأول ذلك ما أخرجه الترمذي عن أبي سعيد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الرب تبارك وتعالى من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيتني أفضل ما أعطي السائلين قال : فضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه .

وأسند أبو بكر محمد بن القاسم بن بشار بن محمد الأنباري النحوي اللغوي في كتاب الرد على من ألف مصحف عثمان عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أن القرآن مادية الله فتمتعوا من مادته ما استطعتم أن هذا القرآن هو حبل الله النور المبين ، والشفاة للنافع عصمة من تمسك به ، ونجاة من اتبعه ، لا يعوج فيقوم ، ولا يزغ فيستعصب ولا تنقض عيائنه ، والله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنة ، وإن الشيطان يفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة ، وأن أقفر البيوت من الخير البيت الصغر من كتاب الله » .

بهذه الروح الوردية النقية ، وهذه النفس السليمة المؤمنة مضى أبو عبد الله القرطبي في تفسيره ، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنته من السنة وآي الفرقان ، وذكر طرفاً في تفسيره من اللغات والأعراب والقراءات والرد على أهل الزيغ والضلال وأحاديث كثيرة شاهدة لما ذكر

من الاحكام ونزول الآيات ، ذاكرا ما يبين معانيها مبينا ما أشكل فيها
بأقوال السلف ومن تبعهم من الخلف .

وتضمن كتابه كذلك أبوابا في فضائل القرآن والترغيب فيه ،
وفضل طالبه وقارئه ومستمعه والعامل به وكيفية التلاوة لكتاب الله وما
يكره فيها وما يحرم واختلاف الناس في ذلك وتحذير أهل القرآن والعلم من
الرياء وغيره ، وما ينبغي لصاحب القرآن أن يأخذ نفسه به ولا يففل عنه
وما جاء في أغراب القرآن وتوضيحه والبحث عليه وثواب من قرأ القرآن
معربا وما جاء به في فضل تفسير القرآن وأهله ، وما جاء في حامل القرآن
وما يلزم قارئ القرآن وحامله من تعاليم القرآن وحرمة ، وما جاء من الوعيد
في تفسير القرآن بالرأى والجسرة في ذلك ومراعاة المفسرين وكيفية
التعليم والفقه لكتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وما جاء
انه سهل على من يقدم العمل دون حفظه ، ووقف طويلا عند قول الرسول
الكريم : « ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما يتيسر منه »
وتعرض لمجمع القرآن وسبب كتابة عثمان المصاحف واحراق ما سواها .
وذكر من حفظ القرآن من الصحابة رضي الله عنهم في زمن النبي صلى
الله عليه وسلم وذكر معنى السورة والآية والحرف وهل ورد في القرآن
وغير ذلك من المباحث الاسلامية التي تهتم الدارسين والباحثين في
القرآن وتفسيره ، ولعلها كانت من المراجع التي رجع إليها جلال الدين
السيوطي في كتابه المعروف « الاتقان في علوم القرآن » كما رجع إليها
غيره من العلماء .

وقد مضى القرطبي في تفسيره للكتاب العزيز بعد ذلك حتى جاء
تفسيره في اثني عشر مجلدا ، وما لبث أن توفي في منية ابن خصيب في
الاندلس حيث دفن بها في ليلة الاثنين التاسع من شوال عام ٦٧١ هـ .

وللقرطبي كتاب آخر يسمى « الاسنى في شرح اسماء الله الحسنى »
وكتاب « التذكرة بأمور الآخرة » ، وكتاب شرح التنقيص ، وكتاب « وقع
الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة » ، وفي
ذلك يقول ابن فرجون في كتاب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء
المذهب ، « مذهب مالك » : لم أمض على تأليف أحسن منه في بابيه .

وللقرطبي أرجوزة جمع فيها أسماء النبي صلى الله عليه وسلم وله
توالمف وتعاليق مفيدة غير هذا .

وله كتاب التذكار في أفضل الاذكار وقد خسر جرح احاديثه وعلق
حواشيه العلامة المحدث السيد أحمد بن محمد بن الصديق النميري
ونشره محمد أمين الحانجي عام ١٣٥٥ هـ في طبعة جديدة .

وقد تضمن هذا الكتاب مباحث شتى تتصل بالكتاب الكريم فيها ان
القرآن كلام الله عز وجل وهو غير مخلوق وفضائل القرآن وتفسير قوله
تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » الى آخر الآية
الكريمة وان أفضل الخلق ايماننا من عمل بما فيه ، وتضمن الكتاب كذلك
مباحث في الملة التي يستحب فيها ختم القرآن وفي أن القلوب تصلوا

وأن جلاهما تلاوة القرآن وأن العلم والقرآن ميراث الانبياء عليهم السلام .
وضم الكتاب كذلك مباحث فى دفع البلاد بتعلم القرآن وأخذ الاجرة
على تعليم القرآن وحسن الصوت وترك الترجيع والتطريب ونحو ذلك
والبكاء والخشوع عند تلاوته والخشية عند سماعه وما الى ذلك .

وصفوة القول أن كتاب القرطبى الأخير يعد غذاء روحيا نافعا لكل
المؤمنين المتعطشين الى الارتواء من منهل القرآن العذب السائغ ، ورحيقه
الحلو المذاق ، ومع أن الكتاب كتب بطريقة روحية خالصة ، فإنه لا يخلو
من منهج علمى سليم ، وحقائق دينية راسخة ، وقد وضعه مؤلفه على
طريقة التبيان للنووى .

هذا وقد كان العلامة القرطبى برغم هذه المجهودات الدينية الكبرى
رجلا متواضعا طيب العشر حلو المجلس ، حسن الطوية ، ويزوى صاحب
نفخ الطيب المقرى « أنه كان يمشى بثوب واحد وعلى رأسه « طاقية » ،
مما يدل على زهده وتقشفه وورعه ونسكه .

ولعل خير ما نختم به هذه الترجمة الموجزة عن أبى عبد الله القرطبى
قول الرسول الكريم عليه السلام : « اذا مات الانسان انقطع عمله الا من
ثلاث : صدقة جارية ، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له » .

وقد ترك القرطبى علما صالحا لا يزال الناس ينتفعون به حتى اليوم .
ولا يزالون يتذكرونه برغم مرور الحقب وتباعد الأزمان .

الأخطل

الأخطل هو غياث بن غوث بن الصلت بن الطارقة من بنى تغلب ،
ويكنى أبا مالك وهو شاعر أموى مشهور ، واختلف فى سبب تلقيبه
بالأخطل فقيل : انه هجا رجلا من قومه فقال له : يا غلام ، انك لأخطل ،
أى سفيه • والمعروف أنه سمي بالأخطل لبداهته وسلطته لسانه على حين
يقبول ابن قتيبة : « الأخطل من الخطل وهو استرخاء الاذن • ونقله
صاحب خزائن الادب وعلق الشارح على ذلك بقوله : لا أعلم احدا ذكر أن
الأخطل كان طويل الاذنين مسترخيهما ، ولم يكن الشاعر نفسه متبرما
بلقبه انما كان يسمى نفسه به أمام الخلفاء دون غضاضة •

ولد فى بادية العراق على شاطئ الفرات ثم تنقل فى شتى الامصار
وقد تزوج الأخطل ببسدة أنه لم يلبث أن طلق زوجته لانه لم يرتج الى
الاقامة معها ، وتزوج أخرى كانت مطلقة كذلك ، وروى أبو الفرج
الاصفهانى فى كتاب الاغانى أن هذه الزوجة الاخيرة تذكرت زوجها الاول ،
امام الأخطل فتنهدت متأسفة وكان بالأخطل مثل ما بها فقال :

كلانا على هم يبيت كأنما بجنبه من مس الفراش قروح
على زوجها الماضى تنوح واننى على زوجتى الأخرى كذاك أنوح

وعاش الأخطل فى زمن واحد هو جرير والفرزدق وهم من طبقة
واحدة فى الشعر وكان الأخطل يقيم فى الحيرة فدارت مهاجرة بينه وبين
كعب بن جعيل شاعر تغلب ، فغلبه الأخطل وأفحمه فصار هو المقدم بين
شعرائهما ••

وكان الأخطل ينقى شعره فينظم تسعين بيتا ، ويختار منها
ثلاثين ، وسئل حماد الراوية عن الأخطل فقال : وما تسألوننى عن رجل
حبب شعره الى النصرانية • وتقرب الأخطل الى معاوية بما كان ينظمه
من قصائد الهجاء ، ولما أفضت الخلافة الى عبد الملك بن مروان أكرم
الأخطل ، وكان بصيرا بالشعر حتى سماه شاعر بنى أمية •

وكان الأخطل نصرانيا يتعصب لدينه تعصبا ملحوظا ، وروى أبو
الفرج الاصفهانى فى كتاب الاغانى ما نقله عن أبى عبد الملك قال : « رأيت
بالجزيرة وقد شكا الى القس وأخذ بلحيته وضربه بعصاه وهو يصى كما
يصى الفرخ فقلت له : أين هذا مما كنت فيه بالكوفة ؟ فقال : « يا بن

آخى ، اذا جاء الدين ذلنا ، وسمع هشام بن عبد الملك الاخطل وهو يقول :

واذا افتقرت الى النخائر لم تجد ذخرا يكون كصالح الاعمال

فقال له هشام : هنيئا لك يا ابا مالك هذا هو الاسلام .. فقال له الاخطل : يا امير المؤمنين مازلت مسلما فى ديني .

وكان اكثر الانصار لا يرون رأى معاوية فى الخلافة فأغرى يزيد ابن معاوية الاخطل بهجائهم فهجاهم هجاء مرا ، فشكوه الى معاوية ، فطالبهم بالبينة بيد أنهم لم يتمكنوا من اظهارها ، ولذلك احتفى الاخطل بيزيد ثم بخلفاء بني مروان ، وصار شاعر دولتهم بقية حياته ، وأصابه الشؤم فى مناصرة الفرزدق على جرير فنصب له جرير وكاد جرير يصبح مطية الاخطل فى يوم من الايام اذ روى صاحب الاغانى أن الاخطل مدح عبد الملك وكان واجدا على جرير ، وجرير عنده فصاح عبد الملك : أجبت أنت مادحنا .. وأنت شاعرنا .. اركب .. قال جرير .. فرمى برذائه ، وكشف قميصه عن منكبيه ووضع يده على عنقه فقلت : يا امير المؤمنين ، النصراني الكافر لا يظهر على المسلم ويركبه ، فقال أهل المجلس : صدق يا امير المؤمنين ، فقال : دعه ، وانفض المجلس .

وكان الاخطل يعاقر بنت الدنان ، ويشرب منها حتى الثمالة .

وروى أبو الفرج الاصفهاني فى الجزء الحادى عشر من كتاب الاغانى أن المتوكل الليثى الشاعر جاء يوما وهو فى الكوفة مع رفيق له الى الاخطل فقال له : أنشدنا يا ابا مالك فقال : « انى لحائر (١) يومى هذا » فقال المتوكل وأنشدنا أيها الرجل فوالله لا تشدنى قصيدة الا أنشدتك مثلها أو أشعر منها من شعرى قال : ومن أنت ؟ قال « انا المتوكل » قال : أنشدنى .. ويحك من شعرك . فأنشده المتوكل أبياتا حسنة السبك ولكنها باردة جافة ، فقال له الاخطل مامعنا : لو شربت لكنت أشعر الناس .

ومن أوصافه للخمر قوله فى قصيدة لامية مدح بها الشاعر خالد ابن عبد الله الاموى .

فصبوا عقارا فى اناء كأنها اذا لمحوها جلوة تتاكل
تلب ديبيا فى العظام كأنه ديبب نمال فى نقا يتهيل (٢)

وأجاد الاخطل الشعر فى المدح اجادة اشتهر بها فى تاريخ الأدب العربى ومن أروع آثاره الشعرية فى هذا المضمار قصيدة « خف القطين » التى استعملها بالفول ثم تخلص الى الممنوح عبد الملك بن مروان فمدحه ،

(١) خائر : منقبض غير تشبيط

(٢) نقا : ما ارتفع من الأرض . يتهيل : ينحدر

وقومه ، وذكر خدمات الاخطل خاصة وبنى تغلب عامة في سبيل الامويين
منتها بهجاء أعداء أمية من قيس وحلفائهم ولا سيما كليب بن يربوع قوم
جرير خصم الاخطل والفرزدق ومطلع القصيدة :

خف القطلين فراحوا منك أو بكروا
(١) وأزعجتهم نوى في صرفها غير

كانني شارب يوم استبد بهم
من قرقف ضمنتها حص أو جدر (٢)

ومن أجود مدحه في هذه القصيدة قوله :

حشد على الحق عيافو الخنا أنف
إذا ألت بهم مكروحة صبروا (٣)

وان تدجت على الآفاق مظلمة
يكن لهم مخرج منها ومعتصر (٤)

أعطاهم الله جددا ينصرون به
لا جد الا صغير بعد محتر (٥)

لم يأشروا فيه اذ كانوا مواليه
ولو يكون لقوم غيرهم أشروا (٦)

شمس العداوة حتى يستفاد لهم
واعظم الناس احلاما اذا قدروا (٧)

وقال في هجاء كليب بن يربوع قوم جرير وهم بنو تميم :

أما كليب بن يربوع فليس لهم
عند التفارط ايراد ولا صدر (٨)

مخلفون ويقضى الناس أمرهم
وهم بغيب وفي عمية ما شعروا

قسوم أنابت اليهم كل مخزية
وكل فاحشة سببت بها مضر

(١) خف القطلين : ارتحل القوم . نوى : فراق وتحول

(٢) قرقف : خمر . جدر : قرية بين حصص وسليمة

(٣) عيافوا الخنا : كارهون لقول الفحش .

(٤) تدجت : أظلمت . معتصر : ملجأ ومعتل .

(٥) جددا : حظا

(٦) أشروا : بطروا

(٧) شمس العداوة : جمع شمس وهو الصعب

(٨) التفارط : ورود الماء .

وأبدع الاخطل في الوصف إما ابداع فوصف الغلاة المقفرة ، ووصف الحيوانات الضارية كالاراقم والذئاب والجرم والبقر الوحشي كمسا وصف الحيوانات المستأنسة والنجار والكلاب والابل ، ووصف الطبيعة الخلابة ، ونهر الفرات ، وما يعبره من سفن ، ووصف الموج المتدفق ، والزبد المتطاير ، وما الى ذلك .

ويعد الاخطل على رأس الشعراء الذين وصفوا السفن والملاحه في الادب العربي اذ كانت سواحل البحرين من منازل قومه القديمة « فملئوا ظهر البحر سفينا » على حد تعبير عمرو بن كلثوم « ثم انتقلوا الى ضفة الفرات فرأى السفن تمخر عباب البحر ، واقتن في وصفها ، ماشاء له الافتنان وقد اعتقد بعض شراح ديوانه أن الاخطل عندما يذكر السفن في قصائده لا يقصد السفن التي تمخر عباب البحر انما يقصد سفينة الصحراء أو سفن البر كما يقول ذو الرمة : « سفينة بر تحت خدي زمامها » كما جعل الشارح الجمال ملاحا .

بيد أن الواقع يختلف عن ذلك اختلافا كبيرا ، فالأخطل ينتمي الى قبيلة عرفت البحر وركبت متنه ، فليس بغريب اذن أن يلجأ الاخطل نفسه الى هذا الوصف ومن قصائده التي تعرض فيها لوصف السفن هذه القصيدة .

يفارقن الخليج على سفين يشفق بهن أمواجاً صعباً

أما ديوان الاخطل فقد عنى بطبعه الاب انطون صالحاني عن نسخة في دار الكتب في بطرسبرج استنسخها رزق الله حسون من أدباء القرن التاسع عشر المشهورين وطبعها في بيروت عام ١٨٩١ ، وعن الاب صالحاني بطبع الديوان طبعة محجرة عن نسخة وجدت في بغداد ، وصدرت طبعة في بيروت عام ١٩٠٩ ، وهناك طبعة للديوان على الحجر باعته الدكتور « عريفتي » عن نسخة وجدت في اليمن وظهرت في بيروت عام ١٩٠٧ ، وعليها تعليقات وشروح . وقد سمع الاب صالحاني بنسخة من ديوان الاخطل في طهران ترجع الى عام ٤٩٩ هـ (١١٠٥ م) فتكون أقدم النسخ المعروفة ومازال يعمل ويقاوض حتى حصل عليها . ونشر فيها مازاد على منشورات النسخ السابقة في كتاب صدر عام ١٩٣٨ بعنوان « التكملة لشعر الاخطل » .

أما قصيدة « خف القطين » فقد نشرت مع ترجمة لاتينية وطبعت في لندن عام ١٨٧٨ ونشر المستشرق الكبير كوزان دي برسفال بحثا نشره في المجلة الآسيوية عام ١٨٣٤ بعنوان ملاحظات على الشعراء الثلاثة الاخطل ، والفرزدق ، وجريز ، كما نشر الاب لامانس عام ١٨٩١ في باريس كتابا بعنوان « شاعر الأمويين » . كما كتب فصلا عنه في دائرة المعارف الإسلامية .

وخصص الأب لويس شيخو فصلا عنه في كتاب « شعراء النصرانية بعد الإسلام » .

وشعر الأخطل متناثر في كتاب الاغانى للاصفهاني والشعر والشعراء لابن قتيبة ، والعقد الفريد لابن عبد ربه وغير ذلك من المصادر .

الحسن البصري

حينما عرف الغزالي التصوف في احياء علوم الدين قال : ان التصوف أمر باطن لا يستطلع عليه ، ولا يمكن ضبط الحكم بحقيقته ، بل بأمور ظاهرة يعول عليها أهل العلم في اطلاق اسم الصوفي ، ويفضل أن يلاحظ في الصوفي خمس صفات : الصلاح والفقر وزى الصوفية ، وألا يكون مشتغلا بحرفة ، وأن يكون مخالطا لهم بطريق المساكنة ، وقد وافق كثير من علماء المتصوفة الغزالي على تعريفه ، بل لقد اشترط بعضهم اشتراطات أخرى شديدة على المتصوفة لا مجال لذكرها الآن .

ولكن المهم أن هنالك فئة من الزهاد والعباد سبقوا حركة التصوف ونهجوا في حياتهم نهجا أشبه بنهج المتصوفة ، ومهد زهدهم وعبادتهم لخروج التصوف الى معناه المعروف في تاريخ الأديان ، ومن هؤلاء الزهاد والعباد الحسن البصري ، المسلم الزاهد .

وقد كان الحسن البصري أو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن ، حليف الخوف والحزن ، وأليف الهم والشجن وعديم النوم والوسن ، نموذجاً حياً للفقير الزاهد ، في متاع الدنيا وزينتها وزخرف حياتها وبهجتها وشهوة النفس ورغبتها .

ولقد تشكل الزهد في الاسلام بطابعين طابع الخوف وطابع الحب :

ومثال الاول الحسن البصري الذي نتحدث عنه اليوم .

ومثال الآخر رابعة العدوية التي أخرجته من الخوف من عذاب النار، والشوق الى ثواب الجنة الى حب الله وطاعته والانس به والاقبال عليه ، والشوق اليه فقالت في إحدى مناجاتها : « الهى ، اذا كنت أعبدك رغبة من النار ، فأحرقنى بنار جهنم ، واذا كنت أعبدك رغبة فى الجنة فأحرقنى اياها ، أما اذا كنت أعبدك من أجل محبتك فلا تحرقنى يا الهى جمالك الازلى » .

أما الحسن البصري فكان من طابع الزهد الاول وقوامه الخوف من العذاب ، والأمل فى الثواب ، وليس أدل على اعمانه فى الخوف ، وخشيته ورهبته من أن الشعرائى صاحب الطبقات الكبرى قال عنه : « انه قد غلب عليه الخوف حتى كان النار لم تخلق الا له » وساقه هذا الخوف الى حزن عميق يكتنفه اكتنافا ويطويه طيا من كثرة التفكير والتأمل والتقدير فقال: « ان المؤمن يصبح حزينا ، ويمسى حزينا ولا يسسه الا ذلك ، لانه بين مخافتين : بين ذنب قد مضى لا يدري ما الله يصنع فيه ، وبين أجل قد بقى لا يدري ما يصيبه من المهالك ؟ » .

كما قال : « الرجاء والخوف مطية المؤمن » وقال كذلك : « ان المؤمن يصبح حزينا ويمسى حزينا ويتقلب باليقين في الحزن ، ويكفيه الكف من الشمر والشرية من الماء »

وهكذا كان الحسن البصري تظلمه دائما سحابة من الحزن ، وغيمة من الشجن ويدفعه وازع من الخوف ، وأمل من الرجاء ، غير أنه كان يضمم للحياة القلا والكراهية ، ويعلم لها المقت والنفور ، وينصح الناس بالتجرد منها ، والزهد فيها والانصراف عن ملاذها وشهواتها التي تجعل من الناس بهيمة تسعى وتلب على الارض ، فقال : « يابن آدم ، انت اليوم في دار هي لا قطنك .. ثم تقضى بأهلها الى أشد الأمور وأعظمها خطرا ، فاتق الله يابن آدم ، وليكن سعيك في دنياك لآخرتك ، فانه ليس لك من دنياك شيء الا ما صدرت أمامك ولا تدخرن عن نفسك مالك ، ولا تتبع ما قد علمت أنك تاركه خلفك » .

وكان الحسن البصري يتوق الى الجنة ، ويهفو قلبه الى نعيمها العظيم وخيرها السابغ وفضلها العميم وكانت عيناه تسمعان حينما يتلو القرآن الكريم ويتذكر قوله تعالى في سورة التوبة : « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » او قوله تعالى في سورة الأعراف : « ونودوا أن تلکم الجنة أو ترموهم بما كنتم تعملون » او غير ذلك من الآيات البينات التي تشوق المؤمنين في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

غير أن الحسن البصري كان يرى أن الجنة لا يمكن أن تهدي الى الناس إهداء أو تسدي اليهم إساءة ، انما لا بد من سعي في سبيلها ، ولا بد من جهاد من أجلها ، ولا بد من سلوك طريق يؤدي اليها ، وهذا الطريق قوامه العمل الخالص . وفي هذا يصرح الحسن البصري لابن آدم قائلا : « يابن آدم عملك .. عملك فائدا هو لحكم ودمك فانظر الى أية حال تلقى عملك لأن لأهل التقوى علامات يعرفون بها : صدق الحديث ، والوفاء بالعهد ، وصلة الرحم ، وحسن الخلق ، وسعة الخلق ، مما يقربك الى الله عز وجل » .

وكان الحسن البصري يرى أن كل نعيم دون الجنة حقير ، وكل بلاء دون النار يسير ، وكان ينظر الى الموت نظرة حسيمة : رأى رجلا يأكل بين المقابر فزجره ، وأنبه وقال : « أما في حال هؤلاء الأموات ما يكفيك عن تذكر الأكل ؟ » ومر عليه شاب وعليه بردة فدعاه فقال : « أيه يابن آدم ، معجب بشبابه ، معجب بجماله ، معجب بثيابه ، كان القبر قد وارى بدنك ، وكان قد لاقيت عملك ، فداو قلبك ، فان حاجة الله الى عباده صلاح قلوبهم » .

وقد دفع الزهد الحسن البصري الى الانصراف عن مظاهر الحياة المادية ، وما يتبعها من مال وعروض ، وضياح ونقود ، وجاء ونفوذ ، فقال : « بثس الرقيقان الدرهم والدينار .. لا يرافقانك حتى يفارقاك » .

وقد بنى أحدهم بماله دارا فخمة ضخمة ، ودعا الحسن الى دخولها فدخل فنظرها ثم قال : « أخربت دارك وعمرت دار غيرك .. لاغرك من في

الأرض ، ومقتك من في السماء • طأ الأرض بقدمك فأنها عن قليل قبرك ،
انك لم تزل في حلم عمرك منذ سقطت من بطن أمك !»

وهكذا أسس الحسن البصري مذهبه القائم على الزهد الخاضع
لسلطان الحزن ، والبكاء والخوف من النار ، والحنين إلى الجنة ، والشوق
إلى نعيمها القميم ، ووصفها بالجميل الذي ما لا رآته عين ، ولا سمعته أذن ،
ولا مر على لسان •

وقد ظل الحسن ينشر مذهبه بين أتباعه ومريديه حتى شاعت
طريقته ، كما شاع أسلوب رابعة العدوية في زهدها ، وأخذ اتباع هذين
المذاهبين من الزهد ينتشرون هنا وهناك ، وفي أرجاء البلاد الإسلامية ،
طوال القرنين الأول والثاني الهجريين حتى اجتمع شملهم ، والتام شتاتهم
في هيئة منظمة أو شبه منظمة تعرف بالصوفية ، ولم تلبث أن ظهرت
طرائق متعددة للمتصوفة وأساليب مختلفة ولكنها جمعت بين صغوفهم •

وهنا يحق لنا أن نقول : إن الحسن البصري لم يكن متصوفا بالمعنى
المعروف إنما كان زاهدا عابدا والزهد غير الفقر والتصوف ، ويقول
السهروردي في كتابه « عوارف المعارف » : إن التصوف اسم جامع لمعانين
الفقر والزهد ، ولكن بزيادة أوصاف وإضافات بدونها لا يكون الصوفي
صوفيا ، ولو كان زاهدا فقيرا فالتصوف أعلى من الفقر والزهد ، وإن كان
منطويا عليها ومستندا اليهما ، لأنهما يمهدان إلى النضجات الروحية ،
والإشراقات الإلهية ، والتصوف علم لبواطن القلوب •

وقد تعددت أقوال الصوفية وتباينت تعريفاتهم في مفهوم معنى
التصوف وتفرقوا في ذلك شيئا وأحزابا في القرون المختلفة •

لم يكن الحسن البصري إذن متصوفا إنما مهد لظهور التصوف
بما سلكه من سلوك الزاهد المتبتل وبما تفوه به من حكم كالدر المنثور
والزهر المنضود ، حتى قال الجنيد المتصوف في تعريف التصوف : « هو
أن يملك الحق عنك ، ويحييك به وتكون مع الله بلا علاقة » كما قال آخر :
« هو استرسال النفس مع الله على ما يريد » وقال سهل : « الصوفي من
صفى من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله دون البشر واستوى
عنده المال والمدر » وقال السهروردي : « الصوفي هو الذي يكون دائم
التصفية لا يزال يصفى الأوقات عن شوائب الأكدار بتصفية القلب عن
شوب النفس ، ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى موله ، فيدوم
الافتقار ينقي من الكدر ، وكلمة تحركت النفس ، وظهرت بصفة من
صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وقد منها إلى ربه ، فهو قائم بربه على
قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه قال الله تعالى : « كونوا قوامين لله شهداء
بالقسط » •

ومن يتأمل في هذه الأقوال يلاحظ أنها لا تختلف كثيرا عن أقوال
الحسن البصري في الحياة والزهد ، وتطهير النفوس ، وإيثار الفقر إلى
الله عز وجل ، بيد أن الحسن كان يطوي هذا كله بفلاحة من الخوف والرغبة
والأمل والحزن وهكذا ، كما كان يميزه زهده وتعبه •

وقال الغزالي : « كان الحسن أشبه الناس كلاما بكلام الأنبياء ، وأقربهم هديا من الصحابة ، اتفق العلماء في حقه على ذلك » . وقال ابن عري : « الحسن عندنا من أئمة أهل الطريق إلى الله جل جلاله ، ومن أهل الاسرار والاشارات » وقال الحافظ : « كان يستثنى من كل غاية ، فيقال : فلان أزهد الناس الا الحسن ، وأفقه الناس الا الحسن ، وأفصحهم الا الحسن » .

ونظر اليه راهبان فقال أحدهما لصاحبه : « مل بنا إلى هذا الذي سمته سمة المسيح فعلا إليه ، فالفياه مقترشا لذقنه راكما وهو يقول : يا عجبا لقوم أمروا بالزاد ، وأذنوا للرحيل ما الذي ينتظرون ؟ » .

ومن أحسن كتب الحسن البصري كتاب أدب الدنيا والدين الذي يعتبر ذخرا نفيسا في الأدب الاسلامي الكريم والخلق الانساني الفاضل .

من القرن العاشر الهجري

أبو فراس الحمداني

أبو فراس الحمداني هو الحارث بن أبي العلاء السعيد بن حمدان بن حملون الحمداني ابن عم ناصر الدولة ومسيف الدولة الحمداني ، شاعر أمير عاش في القرن الرابع الهجري وقال عنه الثعالبي في يتيمة الدهر : « كان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرما ، ونبلا ، ومجدا وبلاغة ، وبراعة وفروسية ، ولم تجتمع هذه الخلال قبله الا في شعر عبد الله بن المعتز ، وأبو فراس يعد أشعر منه عند أهل الصناعة ، ونقطة الكلام ، وكان الصاحب بن عباد يقول : « بنى الشعر بملك ، وختم بملك » يعني امرا القيس وأبا فراس » .

وكان المتنبي يشهد له بالتقدم والتبريز ، ويتجافى جانبه ، فلا ينبغي لمباراته ، ولا يجترى على مجاراته ، وانما يمدحه ويمدح من دونه من آل حمدان تهيبا له واجلالا ، لا اغفالا ولا اخلالا .

وكان سيف الدولة يعجب جدا بحماسة أبي فراس ، ويصطحبه في غزواته ، ويستخلفه على أعماله ، وأبو فراس ينثر الدر الثمين في مكاتباته إياه ، ويوفيه من سؤدده ، ويجمع بين أدبي السيف والقلم في خدمته . وقد أسره الروم في بعض الوقائع وأقام بالأسر أربع سنوات وله في الأسر أشعار كثيرة من أجود ما قاله .

حكى ابن خالويه: قال كتب أبو فراس الى سيف الدولة وقد شخص من حضرته الى منزله « بمنهج » كتابا صدره بقوله : « كتابي - أطال الله بقاء مولانا - « من المنزل » ، وقد وردته ورود السالم الغانم مثقل البطن والظهر وفرا وشكرا » . فاستحسن سيف الدولة بلاغته ، ووصف براعته ، وبلغ أبا فراس ذلك فكتب اليه :

هل للفصاحة والسما	حة والعلاء عني محيد
في كل يوم أستفيد	سد من العلاء وأستزيد
ويزيد في اذا رأيـ	ستك في الندى خلق جديد

وكان سيف الدولة ، قلما ينشط لمجلس من مجالس الانس في هذه الآونة لاشتغاله عن ذلك بتدبير الجيوش ، وملابسة الخطوب ، وممارسة الحروب ، وصادف أن وقعت إحدى المغنيات من قيان بغداد ، فتاقت نفس

أبى فراس الى سماعها ، ولم يرد أن يبدأ باستئذانها قبل سيف الدولة ،
فكتب اليه يحثه على استحضارها فقال :

مهلك الجوزاء أو أرفع وصدرك الدهناء أو أوسع
وقلبك الرحب الذى لم يزل للجد والهزل به موضع
رفه بقرع العود سمعا غدا قرع العوالى جل ما يسمع
فبلغت هذه الأبيات سيف الدولة الحمدانى فأمر القيان بحفظها
وتلحينها حتى تنشد في حضرته .
وتأخر أبو فراس عن حضرة سيف الدولة لعله وجدها فكتب اليه
يقول :

لقد نافسنى الدهر بتأخيرى عن الحضرة
فما ألقى من العلى ـة ما ألقى من الحسرة
وأهدى الناس الى سيف الدولة وأكثروا فكتب أبو فراس :
نفسى فداؤك قد بعث ست تعهدى بيد الرسول
أهديت نفسى انما يهدى الجليل الى الجليل
وقال يشكره على صفحه عنه ، وتسامحه حياله ، مشيدا بمعروفه
وفضله ، وتقصير أبى فراس عن الثناء عليه :

ومالى لا أثنى عليك وطالما وفيت بعهدى والوفاء قليل
وأعدتني حتى اذا ماملكتني صفحت وصفح المالكين جيل
وكتب يستعطفه :

ان لم تجفاف عن الذنو ب وجدتها فينا كثيرة
لكن عادتكَ الجميل ـة أن تفرض على بصيرة
وكتب يعزيه :

لا بد من فقد ومن فاقد هيهات ماقى الناس من خالد
ونظم أبو فراس الحمدانى جملة من القصائد في وصف الحروب
والطعان التى اشترك فيها سيف الدولة . ومن قصيدة يذكر فيها ايقاعه
بمنى كعب وتعد من عيون شعره :

الم ترونا أعز الناس جارا وأمنعهم وأمرعهم جنابا

لنا الجبل المطل على نزار	حللنا المجد منه والهضابا
يفضلنا الأنام ولا نحاشي	ونوصف بالجميل ولا نحايي
وقد علمت ربيعة بل نزار	بأننا الرأس والناس الذنابي
ولما أن طفت سفهاء كعب	فتحننا بيننا للحرب بابا
منحنها الحرائب غير أنا	إذا جارت منحنها الحرابا
ولما ثار سيف الدين ثرنا	كما هيبت أسبدا غضبا
أسننته إذا لاقى طعانا	صوارمه إذا لاقى ضرابا
دعانا والأسنة مشرعات	فكنا عند دعوته الجوابا
صنائع فاق صانعها ففاقت	وغرس طاب غارسه فطابا
وكننا كالسهام إذا أصابت	مراميها فراميها أصابا

وقد كان أبو فراس الحمداني يستهل أغلب قصائمه بالفزل والنسيب على النحو الذي كان يلجأ إليه الشعراء المتقدمون ، ثم يرجع بعد ذلك إلى الغرض الذي نظم من أجله القصيدة كالملاح أو الفخر أو الوصف أو نحو ذلك ومن ذلك قوله في إحدى قصائمه :

أيلحاني على العبرات لاحي	وقد يئس العواذل من صلاحي
تملكني الهوى بعد التأبي	وراضني الهوى بعد الجراح

ومن الأبيات التي توضح فخره واعتزازه بشخصيته قوله إلى أبي أحمد جعفر بن ورقاء :

انا اذا اشتد الزما	ن وناب خطب وادلهم
ألفيت حول بيوتنا	عند الشجاعة والكرم
للقا العدا بيض السيو	في وللتسلي حمر النعم
هذا وهذا دأبنا	يسودي دم ويراق دم

ومن فخره قوله كذلك :

أقلى فأيام المحب قلائل	وفي قلبه شغل عن اللوم شاغل
تطلبني البيض الصوارم والقنا	بما وعلت جدى وفي المخايل
تدافعني الأيام عما أرومه	كما دفع الدين الغريم الماغل
خليلى شدا لي على ناقتيكما	إذا ما بدا شيب من الفجر ناصل
فمئلى من نال المصالي بسيفه	ويا ربما غالتة عنها الفوائل
وما كل طلاب من الناس بالغ	ولا كل سيار إلى المجد وإصل
وما المرء إلا حيث يجعل نفسه	رائى لها فوق السماكن جاعل
أصاغرنا في المكرمات أكابر	وأخسرنا في المائثرات أوائل
إذا صلت صولا لم أجد لي مصولا	وان قلت قولاً لم أجد من يقاول

وهكذا ظهرت في شعر أبي فراس الحمداني روح المزة والاعتداد بالنفس والاعتزاز بالشخصية ولا يرجع ذلك إلى أنه أمير ، بل لأنه أدبى

نفسا تواقا الى المعالي متعلقة بغطائم الأمور • ومن قصائده التي توضح هذه النفسية المثوبة قوله :

غيري يعبره الفعال الجافي
لا أرتضى ودا اذا هو لم يسلم
تس الحريص وقل ما يأتي به
ان الفنى هو افنى بنفسه
ما كل ما فوق البسيطة كافيا
وتصاف لى طمع الحريص فتوتى
ماكرة الخيل المتعاق بزائدى
خيل وان قلت كثير نفعها
ومكارمى عدد النجوم ومنزلى
شيم عرفت بهن منذ أنا باقم

ويحول عن شيم الكريم الوافى
عند الجفاء وقلة الانصاف
عوضا عن الالحاح والالحاق
ولو أنه عارى المتأكب حافى
فاذا قنعت فكل شيء كافى
ومروءتى وقناعتى وعفائى
سرفا ولاعد السوام الضافى
بين الصوارم والقنا الرعاف
ماوى الكرام ومنزل الاضياف
ولقد عرفت بمثلها أسلافى

وقد قرب سيف الدولة ابا فراس الحمدانى اليه ، وأقطعه على أثر مساجلة شعرية ضيعة منبج « ثقل ألف دينار كل سنة » على حد تعبير ابن خلكان في وفيات الأعيان • وتفصيل ذلك أن ابا فراس كان بين يديه يوما في نفر من ندمائه ، فقال لهم سيف الدولة أيكم يجيز قولى ؟ وليس له ألا سيدى يعنى ابا فراس :

لك جسمى تصله فسلمى لم تحله
فارتجل أبو فراس وقال :

أنا ان كنت مالكا فلك الأمر كله

فاستحسنه سيف الدولة الحمدانى وأعطاه تلك الضيعة

ولا غرو فى هذا فقد كان سيف الدولة الحمدانى بجانب شهرته فى حروبه صاحب همة عالية فى احياء العلم والأدب ، اذ جمع بساطة أعظم الأدباء وأكابر الشعراء الذين كان من بينهم أبو فراس والمتنبى الذى اتصل بقصره تسعة أعوام كاملة والسرى الرفاء الشاعر الوصاف ، وأبو الفرج البغهاء ، وابن نباتة السعدى وفيلسوف الاسلام أبو نصر الفارابى وابن خالويه عالم اللغة والأدب الذى كانت تقف اليه وفود الطلاب من كل فج عميق •

ويقول الثعالبى فى يتيمة الدهر : « لما أدركت ابا فراس حرفة الأدب وأصابته عين الكمال ، أسرته الروم فى بعض وقائعها ، وهو جريح وقد أصابه سهم بقى نصله فى فخذه ، وتطاوالت مدة أسره لتعذر المفادة ، وكانت تصدر أشعاره فى الأسر والمرضى ، لفرط الحزن الى أهله وأخواته وأحبابه ، والتبرم بحاله ومكانه ، عن صدر حرج ، وقلب شجى ، فتزداد رقة ولطافة ، وتبكي سامعها ، وتعلق بالحفظ من سلاستها » •

ومن هذه الأشعار التى نظمها أبو فراس فى أسره وتعرف فى الأدب العربى باسم « الروميات » قوله :

ما للعبيد من السنى يقضى به الله امتناع
ذدت الأسود عن الفرا نس ثم تفرسنى الضباع !

وكتب أيضا الى سيف الدولة من الطريق ، وقد حملته الروم ،
واشتلت به العلة وازداد عليه الوجع والألم :

هل تعطفان على العليل هل تعطفان على العليل
بانت قلبه الأكف بانت قلبه الأكف
فقد الضيوف مكانه فقد الضيوف مكانه
وتعطلت سمر الرما وتعطلت سمر الرما
يا فارج الكرب العظي يا فارج الكرب العظي
كن يا قوى لذا الضعيف كن يا قوى لذا الضعيف
قربه من سيف الهدى قربه من سيف الهدى
لم أرو منه ولا شفيع لم أرو منه ولا شفيع
ياعدتى فى النأثبا ياعدتى فى النأثبا
أين المحبة والنمسا أين المحبة والنمسا

وكتب الى أمه يصف آلامه فى الاسر ويوصيها بالصبر والسلوان :

لولا العجز بمنهج لولا العجز بمنهج
ولكان لى عما سأل ولكان لى عما سأل
لكن أردت مرادها لكن أردت مرادها
أم بمنهج حرة أم بمنهج حرة
يا أمنا لا تيسى يا أمنا لا تيسى
يا أمنا لا تحزنى يا أمنا لا تحزنى
كم حادث عنا جلا كم حادث عنا جلا
أوصيك بالصبر الجميـ أوصيك بالصبر الجميـ

ويشاء الله أن تموت أمه وتلفظ أنفاسها وهو ما برح فى الاسر يكتوى
بناره فانكب يبكيها بدمع هتون :

أيا أماه كم بشرى يقربى أيا أماه كم بشرى يقربى
الى من اشتكى وإن أناجى الى من اشتكى وإن أناجى

وكان أبو فراس كريم الخلق نبيل الشعور حتى انه تذكر خادمه
(منصور) وهو فى أسره ونظم له بضعة أبيات جاء فيها :

وكثير من الرجال حديد وكثير من الرجال حديد
أنا أصبحت لا أطيق حراكا أنا أصبحت لا أطيق حراكا

ومن أروع شعره الذى نظمه قبل الوفاة تلك الابيات :

أبني حتى لا تجزعي
نوحى على بحسرة
قولى إذا كلمتني
زين الشباب أبو فرا

كل الانام الى ذهابي
من خلف سترك والحجاب
وعيتت عن رد الجسواب
س لم يتمتع بالشباب

وفى ربيع الآخر عام ٣٥٧ هـ قتل أبو فراس : وسبب ذلك أنه كان مقيما بحمص فجري بينه وبين أبي المعالي بن سيف الدولة وحشة ، فطلبه أبو المعالي فانحاز أبو فراس الى حدود (بقرب حمص) فجمع أبو المعالي الاعراب من بنى كلاب وسيرهم في طلبه مع قرعويه فأدركه ، وأخيرا قال قرعويه لسلام له أقتله فقتله ، وأخذ رأسه وتركت جثته في البرية حتى دفنها بعض الاعراب .

وهكذا قتله مولى ابن أخت أبي المعالي عندما تبين له طمعه في السلطان .

هذا وقد طبع ديوان أبي فراس الحمداني عدة طبعات منها طبعة ظهرت في بيروت عام ١٨٧٣ عن المطبعة السليمية دون شروح ، وطبعة ظهرت عام ١٩٠٠ مع شروح قليلة بقلم نخلة قلفاط ، وطبعات مختارات الثعالبى في يتيمة الدهر في دمشق في أوائل القرن الحالى وطبعات في ليدن عام ١٨٩٥ ومهما ترجمة بالالمانية للمستشرق الكبير رودلف دفوراك، ونشرت المطبعة الادبية في بيروت ديوان الشاعر عام ١٨٧٣ ، ولم يشر الثعالبى في اليتيمة الى قصيدة أبي فراس في رثاء والدته بيد أنها في نسختين مختلفتين في برلين ، وفي نسخة محفوظة باكسفورد ، وترجم أحد المستشرقين قصيدة أخرى من قصائده في والدته الى الالمانية .

من القرن الحادى عشر الهجرى

الشاعر الرمادى

هو شاعر عربى عاش فى اكناف الاندلس منذ ما يقرب من ألف عام ، واهتمز للجمال وعشق قلبه احلى ربات الجبال فأرسل نغمات حلوة أسكرت الآفاق وترددت أصداؤها سحرية النبرات ، وكتب رواثع خالصة وبداثع لامية فى جبين الادب .

ولكن يد الدهر شاتت أن تسلبها فحملت مخطوط شعره إيدى المستشرقين الى برلين بين أطواء النفائس العربية حين اندلعت نيران الحرب الأخيرة وأخذت تفرق برلين بالقذائف والحجم ، فنقلت ذخائر مكتبة برلين الى غارامين .

انه أبو عمرو يوسف بن هرون الرمادى الذى كتب عنه صاحب مطمح الانفس ومسرح التانس فى كتابه المطبوع بالقسطنطينية عام ١٣٠٢ انه « شاعر مقلد انفرج له من الصناعة المقلد وومض له برقهما المؤتلق وسال بها طبعه كلاما المتلفق فأجمع على تفضله المختلف والمتفق »

وقالت عنه دائرة المعارف الاسلامية الطبعة الانجليزية : انه ربما سمي الرمادى لانه من مدينة رمادة بالقرب من قرطبة أو ربما سمي بذلك نسبة الى الرماد ، والعرب كانت تكنى بكثرة الرماد عن الكرم .

وقد قضى الرمادى حياته فى مدينة قرطبة اللهم الا بضعة شهور قضاه فى مدينة سراقوجة وقد ذكر صاحب نفع الطيب فى كتابه أن قرطبة كانت من الاندلس بمثابة الرأس من الجسد .

وقالت دائرة المعارف البريطانية فى النسخة الانجليزية كذلك : ان الشاعر الرمادى قد أثرت فى حياته عوامل عدة : منها اتصاله بأبي على الغالى مؤلف الامالى والخطيب (أبو الحسن) واتصاله بعد هذا وذاك بصاحبه خولة التى كانت على حظ وافر من الجمال وقسط ساحر من السحر الحلال وسميت خولة فى بعض المصادر بحلوة بالضم أو حلوة بالكسر .

اسمعه يقول :

على كبدى تهوى السحاب وتذرف وعن جزعى تبكى الحمام وتهتف
كان السحاب الدلائل غوامس وتلك على فقدى نوائح هتف

الا ظننت ليل وبان قطبتيهما ولكنني باق فلو مونا وعنفوا
وانست في وجه الصباح لبينها نحولا كان الصبح مثلي مدنف
وقال ايضا ينيكي حاله ويندب حيه :

فقلت دموعي يوسفا في حسنه فغلوت يعقوبا بشدة وجده
وعميت مما قد لقيت من البكا حتى سجنحت على الجفون ببرده
ولقد كان هذا الشاعر الى جانب هذا رائع التأملات دقيق النظرات
في الطبيعة تخلبه مجاليها وتسلب له مفاتيها ومفاتيها وكانى به وقد
وقف أمام البحر الخضم يلتقي بصره على الموج الشاحب الباهت الذي يطفى
عليه الزبد بين الفينة والفينة فيذكر حبيبته الهاجر ويقول :

ورأيت فوق البحر در عا فاقمنا من زعفران
يامن ناي عنى كما ينأى لعيني الفرقدان
فأرى بعيني الفـرقـد ين وانـه ما ان يرانى
لا تدوين لك أوبة حتى يثوب القـارـطـان
هل ثم الا الموت فر دا لا تكون الميتينان
ثم يزجى الشاعر الرمادى حسرته وأنـه الى مالكة فيقول :

قولوا لمن أخذ الفؤاد مسلما يمنى على برده مصدوعا
العبد قد يمضى وأحلف اننى ما كنت الا ساعما ومطيعا
مولاي يحيا فى حياة كاسمه ولنا أموت صباة ولوعا (١)
لا تنكروا غيث الدموع فكل ما ينحل من جسمى يكون دموعا
وكن الشاعر الرمادى الى جانب هذا يضيف الى الخيال العربى آفاقا
جديدة ومعانى رقيقة لم يالفها العرب من قبل - اسمعه يقول :

قبله قدام قسيسية شربت كميات بتقديسه
يقرع قلبي عند ذكرى له فى فرط شوقى قرع ناقوسه
بل اسمعه يقول كما يقول لامارتين الشاعر الفرنسى الرومانسى
الرائع « اننى أغنى يا أصلدائى كما يتنفس الانسان ويفرد الطائر وتنسم
الريح ويهدر الماء :

أيها اللاتمى على الحب مهلا هل تلام الحمام فى التفريد ؟
اننا اذا ما ذكرنا فى تاريخ الادب العربى بعض الشعراء العذرين
العشاق كجميل بثينة ، وقيس - ليلى ، وعروة - عفراء وغيرهم فاننا

(١) أى حياة حلوة كاسمها اذ أحيانا كانت تدعى بالاسم (حلوة)

أيضاً نذكر الرمادى الذى تيم بحب خولة وأنشد فيها قصائده رائعة
وقلائد لامعة فى صدر الادب العربى وإن سقطت من جيد الادب وتناثر
بعضها فى بطون الكتب العربية التى فى مصر كنفع الطيب وذخيرة ابن
بسام ومطمح الانفس وياقوت الحموى ودائرة المعارف الاسلامية ، وانتقل
البعض الآخر الى برلين حيث احتبس فى غار قصى ..

كان الشاعر الرمادى يحب خولة كما كان ابن زيدون يحب ولادة ،
وكان سجيناً لأسباب سياسية كما كان ابن زيدون كذلك .

وجملة القول أنهما كانا شاعرين رائعين من طراز واحد وأفق واسع،
وخيال سبوح ولكن شعر يوسف بن هرون حملته أيدي المستشرقين الى
شرلين وأقصته القذائف والنجم الى غار قصى مكين فليت شعرى من يحرر
الشعر السجين ؟

من القرن العشرين الى الان

المنفلوطي

قلما تذهب الى مدرسة من المدارس أو معهد من المعاهد الا وتشاهد فتاة أو فتى عاكفا على أحد كتب المنفلوطي يقرؤه مرة ومرة حتى يكاد يلتهمه التهاماً ويستعير أحد الطلاب أحد كتب المنفلوطي من كتب مهمته حتى اذا ما خلا الى نفسه أخذ يقرؤه ويستوعبه ويستلهم معاني الحب النبيل من كلماته وصور الفضيحة الفذة من صوره .

وتلك هي منزلة المنفلوطي في صدور الشباب كما كانت منزلته في الجيل الماضي . إلى ان منزلته في الجيل الماضي كانت تعدل منزلته اليوم عشرات المرات . كان مجرد ذكر اسم المنفلوطي معناه عملاق الادب العربي ورسول البلاغة ومبدع البيان .

نشأ المنفلوطي في بيت عرف بالورع والتقوى والدين والعلم ، ولما تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم وقد اly الازهر كما كان يفد طلاب العلم اليه . وكما وفد اليه سبعة زغلول والزيات وطه حسين وغيرهم من أقطاب الادب العربي الحديث .

وقد تفتحت مواهب المنفلوطي وهو لا يزال في ريعان العمر على نظم الشعر فنظم قصيدة غزلية وهو في السادسة عشرة من عمره يشكو حرق الغرام وآلام الجوى والسهاد .

وقد كان المنفلوطي يذكر هذه القصيدة لاصحابه في خفية واحتراس ولكن سرها عرف عند أساتذته ، فطلبوا اليه انشادها ، فانشدها لهم وهو يتبلل من الحجل وطلب منه أحد أساتذته المتمكنين في اللغة والأدبان ينطلق في ميدان الشعر والادب ، فلا بد للزهرة أن تفتتح عن كنهها ولا بد للعطر أن يفوح منها فيعبق الاجواء .

واصل المنفلوطي بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وظل يحضر مجالسه حتى استوفى أنفاسه عام ١٩٠٥ وقد أفسح الشيخ محمد عبده من مجلسه للمنفلوطي وشجعه على الكتابة في الصحف والاتصال بالرأى العام .

ولم يلبث أن بزغ نجم المنفلوطي على صفحات المؤيد وهي تلك الجريدة التي كان يصدرها الشيخ علي يوسف ومضى يكتب أسبوعياته ويسجل فيها كل ما يمن له من خواطر وما يضطرب في قلبه من أحاسيس وقصد جمع بعد ذلك هذه الاسبوعيات في كتاب أطلق عليه « النظرات » .

وقد قام المنفلوطي بتعليم الشباب الحب العفيف بما دبجته يراعيه من قصص نقلها عن الأدب الأوروبي مثل قصة « ماجدولين » التي ألفها الكاتب الفرنسي « ألفونس كار » و« الفضيلة » وفي سبيل التاج « للكاتب الفرنسي « فرانسوا كوبيه » .

وما أعمق ذلك الحب الذي نشأ بين بطلي قصة « ماجدولين » أو « تحت ظلال الزيزفون » فإذا الحب قطرة غيث صافية تنزل بالتربة الطيبة فتثمر الرحمة والشفقة والبر والمعروف وإذا كل سطر يسطره المنفلوطي في هذه القصة يحمل أروع معاني الحب فإذا كان الربيع فصل الحب فتأنس النفوس وتقرب القلوب من القلوب وتمتلئ الحدايق والبساتين بجماعات الطير صادحة فوق زواجر الأغصان وجماعات الناس سائحة بين صفوف الأشجار فإن المحبين لا يرتاحون لما لم بهم من فراق ويذكرون تلك السعادة التي عاصروا أغصانها وجنوا ثمارها ويحنون إليها حين الليل الى مطلع الفجر والجذب الى المطر .

وفي « ماجدولين » رسم لنا المنفلوطي علاقة المرأة بالرجل ، فالرجل يراها أداته الخاصة التي لا حق لانسان غيره في التمتع بها بأي وجه ويرى أن حقا عليها أن تختصه بجميع مزاياها وصفاتها فلا تقع على حسننها عين غير عينه ولا تسمع رنة صوتها أذن غير أذنه ، فيغار عليها من النظرة واللغة وكلمة الاستحسان وكلمة الإعجاب ، ويغفل إليه أن الناظرين إليها والمحتفلين بها والمتحدثين بأحاديث حسننها وجمالها إنما هم قوم جناة متلصصون قد ملؤا أيديهم الى خزانة ذخائره التي يملكها وحده من دون الناس جميعا .

أما المرأة فتنظر الى الرجل الذي تحبه نظرها الى حليتها التي تلبسها وتمتد بها وتزهر بها على أثرها فلا أوقع في نفسها ولا أشهى الى قلبها من أن تسمع الرجال يقولون عنه : انه رجل عظيم والنساء يقبلن عنه ، انه فتى جميل ، فهي تحبه لخيالاتها وكبرياتها أكثر مما تحبه للذاتها وشهواتها وترى في إعجاب المعجبين وافتتان المقتنات بحسنه وجماله اعترافا منهم بحسن حظها وسطوع نجمها واكتمال أسباب سعادتها وهنائها وهذا كل ما يعتنينا من شئون حياتها .

وقد بين لنا المنفلوطي في هذه القصة أيضا الفرية وأثرها في النفوس وهي من الحالات التي تصاحب الحب : فاستيفان عندما وجد ما جلدولين مع قريبها أرشميد غار ولى وجهه عنهما وتلهى بالنظر الى بعض الشجرات والزهرات وأخذ يترقبهما من مكمنه حتى اذا ما هبط الليل مر أمام غرفة « ماجدولين » فسمعها تتحدث مع أرشميد ولم تلبث أن انطلقت تغني غناء شجيا لئلا يذاع أن أذنا غير أذنه تراحه على سماعه حتى خرجت تودعه في غلالة رقيقة بيضاء فشرع ينظر إليها من بعيد فلما عادت الى الغرفة وأغلقت الباب ورأسها ظل راكما أمام بابها يرسل آهاته وزفراته .

وفي قصة « الفضيلة » أو « بول وفرجيبي » يصور لنا الاخلاص في أوجه بين بطلي القصة في إحدى الجزر التي في المحيط الهندي على مقربة من جزيرة مدغشقر وعلى مدى غير بعيد من جزائر سيشل وهي جزيرة

مقفرة لا تجد فيها أحدا الا قليلا من السكان السود متفرقين فى جبالها .
وغاباتها يستعبدهم بضعة أفراد من الاوروبيين الذلّين بينهم ويسخرونهم
فى حراثة الارض واستنبتها واستخراج معادنها ، وتقليم أشجارها كم
هو شأن المستعمرين الأوروبيين فى جميع الأصقاع التى يعيشون بها .

وقد انتهت القصة بموت فرجينى وموت بول وهو جُثم على قبره
وقد ضم الى صدره صورة القديس بول وانتهت بموتها المأساة دفننا
معا بعد ان خلدا أروع معانى الحب .

تأمله وهو يقول مناجيا حبيبته :

انك كل شيء لى يا فرجينى ، انك حياتى التى لا أستطيع أن أعيش
بدونها ، بل لا أستطيع فراقها لحظة واحدة . ان زرقه عينيك أصفى
من زرقه السماء ، وأن نضارة وجهك أجمل من نضارة الربيع ، وان ماء
الحسن الذى يجول فى أديمك لهو الكوثر الذى يصفه الكتاب المقدس فيما
يصف من بدائع الجنان . اسمع صوتك الذى هو أشبه شيء بصوت الطائر
الفرد ، فيخفق قلبى خفقان أجنحة ذلك الطائر ، وأضجع يدى فى يديك
فتنبعث فى جسمى رعشة شديدة كرعشة الخائف المذعور وما أنا بخائف
ولا مذعور .

أما قصة « فى ميبيل التاج » التى ألفها « فرانسوا كوييه » ذلك
الشاعر الذى عرك صروف الزمان وجس ياصبغه مصائب الانسان حتى
لقبه عارفوه « معزى المكثودين والبؤساء » وشاعر الضعفاء والمحزونين « فقد
صور فيها مؤلفها الصراع بين حب الأسرة وحب الوطن فضحى بالمعاطفة
الأولى فداء الأخرى ، ثم ضحى بحياته فداء لشرف الأسرة وفيها أصبحت
ميلتزا العزاء الوحيد لقسطنطين عن همومه وآلامه ، اذ وجهه بين جنتيها
تلك النفس الطاهرة البريئة التى طالما نشئها قبل اليوم ووجد فى صدرها
ذلك القلب المحب المخلص الذى يكاه وتديه ندبا شديدا يوم ماتت أمه
ويوم تولى عنه حنان أبيه ، فكان يتحدث اليها فى كل شيء من شئور
الحياة دقيقها وجليلها ويفضى اليها بكل خبيثة من خبايا نفسها ، حسنه
المعاني الرفيعة من الحب هى التى بثها المنفلوطى فى ترجماته ومقالاته ،
وكان يعتقد أن الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة سواء
كان ذلك فى المحسوسات أو فى العقولات وفى الحقائق أو الخيالات ،
وما كان الوجه الجميل جميلا الا للتناسب بين أجزائه ، وما كان الصوت
الجميل جميلا الا للتناسب بين نغماته ، ولولا التناسب بين حبات القند
ما افتننت به الحسناء ، ولولا التناسق بين أزهار الروض ما حامت به
الشعراء .

وقد لاقى المنفلوطى ربه عام ١٩٢٤ . ففقد الادب العربى بوفاته ركننا
يزكينا من أركانه ، ولكنه ترك طائفة من الابناء لا يزالون يحملون رسالته
يعتقدون أنه يحق عملاق الادب الحديث .

من القرن العشرين للميلادى

عبد الحليم المصرى الشاعر المنفى

هذا شاعر جيد الصياغة ، واسع الخيال ، حلو المعاني بيد أنه لم يظفر بإهتمام النقاد فى الادب العربى مثلما ظفر أقرانه من الشعراء . وقد كان شاعرا من طراز البارودى جمع بين السيف والقلم من ناحية ، وبين الرغبة فى إعادة الشعر الى مجده الاول ، وعصوره الزاهية فى الادب العربى القديم من ناحية أخرى . فسار على منواله ونهج على غراره . وجدير بنا أن نستعرض شيئا من حياته وطرقا من شعره .

ولد عبد الحليم المصرى فى مايو عام ١٨٨٧ بناحية «فيشى» من أعمال دمنهور ، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية التحق بالكلية الحربية التى تخرج فيها عام ١٩٠٦ ، والحق عقب تخرجه بالأورطة السادسة عشرة المشاة فى كسلا .

وقد جمع عبد الحليم المصرى بين طبيعة رب السيف ورب القلم ، فتراه حينما يتدفق حماسه ووطنية ويشتمل بالنخوة العسكرية ، ويصف المارك والحروب ، ويفخر بجواده ، وحسامه ، ويزهو بشجاعته وإقدامه وتراه حينما صبا مستهاما ، ومحبيا هائما يتيه فى بحر الحب ، ويخب فى بيداء الغرام ، فإذا بالبحر الصاحب المضطرب أمام بصره - صفحة هادئة وادعة ناعسة ينسكب فوقها ضوء القمر وينساب عليها زورق العشاق وإذا بالصحراء المتقدمة جنة وارفة الظلال تجرى من تحتها الانهار .

والتقى عبد الحليم المصرى فى السودان عند خور الجاش بالقرب من كسلا بقيادة هيفاء أخذ يبتها شوقه ، ويفصح لها عن حبه فى أبيات عذبة من الشعر :

لا ترشدني وخلى الشوق يهديني لعل يد نيهو ما كان يقصيني
وساقي الخيل عنى وهى شاردة فى مهجة النقع أرويهما وترويني
لا تسقني الماء اذ يجرى ربي ظمأ على يدك فليس الماء يرويني
لى فى ربي النيل رثم كدت أعبد فى شرعة الحب لولا شرعة الدين

ويتعتبر الشعر الذى نظمه عبد الحليم المصرى فى آكناف السودان من أصدى الحنين وأعذب شعر الشوق فى الادب العربى الحديث لما تضمنه من اخلاص فى الاحساس ، وصدق فى التعبير ، وقوة فى العاطفة ، واشراق فى الديباجة ، وعذوبة فى الأسلوب . وهو فى هذا الباب يشبه شاعر النيل (حافظ ابراهيم) الذى سافر فى بعثة عسكرية الى السودان

فلم يحالفه الحظ وجانبه التوفيق ، واتهم بالتمرد والعصيان ، فكتب رسالة بليغة الى الاستاذ الامام محمد عبده متمنيا ان تنحسر عنه هذه الغمرة وينطوى أجل تلك الفترة وينظر اليه نظرة ترفعه من ذات الصعد الى ذات الرجوع وترده الى وكره الذى درج فيه رد الشمس قطرة المزن الى أصلها ، ورد الوفى الامانات الى أهلها ، كما نظم قصيدة باثية يصور فيها شوقه الى مهبط رأسه بعد ما آب بخيبة بعد اغتراب .

ولكن عبد الحليم المصرى يختلف عن حافظ ابراهيم فى موضوع هذا الشوق . حافظ كان رجلا ساخطا متبرما ، ضائقا متهاككا ، أما عبد الحليم المصرى فلم تخالط شوقه الكتابة أو الحزن ، ولم يمازج حنينه هذا اللون من الانتقام أو يهيمن عليه هذا الظلام ، انما كان حنينه مشرقا باسماء برغم ما يكتنفه من شوق لجوج ولهفة عذمة .

ونظم عبد الحليم المصرى قصيدة بعنوان « شاعر يسأله حاول أن يسجل فيها بعده عز الغيد الملاح ، ونفوره من الكواكب الحسنان ، وصموده أمام سحرهن وبهائهن ، ولكنه عاد فى ختام القصيدة يشدو بذكراته ، ويترنم بأنغام الحب القديم :

من مبلغ الغيد عنى قصة عجبنا تبكى وتضحك منها الغيد فى حين
انى سلوت فلا صجر فيها لىمنى به الفرام ولا وصل فيثينى
فلتلبس الغيد من نسج انضجى حلا ولتعلم اليوم انى غير مفتون
وليمتع النفس غيري فى خيالها وليقطف الورد من تلك البساتين
تلك النصوصن وكم لويتها بىدى وبث نحى جناحنا بالموازين
حين المحبة تحت الكرم ترضعنا والسحب ترضع أولاد الرياحين

وفى بعض القصائد الاخرى نجد عبد الحليم تمأوده نخوته العربية وتمثل فيه حميته العسكرية ، فهو لا يسمح بصراع أهل طرابلس مع الايطاليين حتى يبدى رغبته فى الانحيل الى هناك للاشتراك فى انعارات الحامية الوطنية الدائرة الرحي فى تلك البقاع ، وتهب به دعوة القومية العربية المتأصلة الاسس العميقة الجذور منذ أبعد العقب والازمان ، فينهض مخاطبا السلطان عبد الحميد :

بالصيف بالرمح بالقرطاس بالقلم صونوا حى الملك واحوا حوزة العلم
يا صاحب التاج هذى أمة بدأت تدنس الارض فغسل أرضها بدم
فى الشرق جند اذا تاديت عن كذب عسدا آليك على جن بلا لجن

وعبد الحليم المصرى لا يوجه هذه الايات الى عبد الحميد تقسيرا الى السلطان أو تمسحا بالابواب أو تزييفا الى الاعتاب ، انما يوجه اليه هذه الايات ليقطع دابر الظلم والطفين ويهدم صروح البنى والعدوان ، وهو قبل ذلك كله وبعد هذا كله صاحب السيف القوى البتار الذى لا ترميه سطوة السلاطين أو يهزه جه الملوك والاقبال وفى هذا المعنى يقول :

ألم تهزك أشعار ولى . إذا جرى هزتيجان السلاطين
وصارم فى الوغى لوجهته اتبعث له المقادير بين الكاف والنون
كما قل متشبها بقول أبى الطيب المتنبى :
الحيل والنليل والبيداء تعرفنى وأنسيف والرمح والقوطاس انقلبه
قل عبد الحليم هنا البيت :
قلبى ثيابى سـطوتى همى سيفى جوادى فجاتى عدتى زردى

ودع انفارق الكبير بين انبيتين فانهما يتفقن فى تمجيد القرومية
واستخدام السيف والغشيين المعارك والحروب . بيد أن المتنبى كان أكثر
حبكة وأسنس أسلوبا من عبد الحليم .

وعندما أزمع عبد الحليم الرحيل إلى طرابلس للاشتراك فى الحرب
الترابية هناك كانت الفرقة تملأ أعطفه ، وكن الفخر يختلج فى صدره
لأنه سيحقق أمنية طالما جاشت فى نفسه ، وهى أمنية الجهاد فى سبيل
الله ، والدفاع عن الحرية ، والمساهمة فى خدمة أبناء العروبة والإسلام
الذين جمعتهم وآياه روابط وثيقة ، وشائج متينة هيئات أن يفرقها
النهر أو تمحوها أيدي الزمان .

فيم الاقمة فى مصر وتلك ربى يضيق فيهن صدر الرحب بالرحم
لا جبذا رقدة بالنيل ناعمة وحبذا وقفة بالجيش من أسمى
لا خير فى العيش يطويه الغنى لما كم فرج الموت عن نفس من الالم
أستودع الله أهلى فى كنانته مستقصيا عنهم مستوصيا بهم .
ولما اصطدم الفريقان انتصرت جيوش العرب ، وصفق الاحرار لهذا
الظفر المبين ، ودقت الطبول فى كل مكان ، وسرت الفرقة على كل لسان ،
ونظم عبد الحليم قصيدة فى أفراح النصر جاء فيها :

السيف يصنع مالا تصنع الكتب لا الحرب قول ولا صدق الظباكتب
تخرص القوم فى الهيجاء وارتفعت فرائص هد من أركانها اللجب
ومنتهى القول أن الحرب قائمة العرب نار لها أعداؤهم حطب
وغير خاف أن عبد الحليم المصرى حاول أن يستمد بعض المعانى من
أبى تمام من قصيدته المشهورة فى فتح عمورية وينحو منحاه فى التأنيق
والزينة والزخرف .

وهذه الظاهرة تدلنا على أنه كان كالبُردى يرجع الى الشعر القديم
ليستوحى منه فنه ويستمد منه طاقته ومعانيه ، وقد تعلم من البُردى
ألا يمدح الا من يؤثر ، وألا يرثى الا من يعز ولا يقاخر الا لأنه أهل فخار ،
ولا يصف الحرب الا لأنه خاض غمارها ، واصطلى بنارها ، كما كانت

شخصية حافظ إبراهيم تمتلك جوانب نفسه امتلاكاً إلا أن عبد الحليم لم تمتد به الحياة طويلاً فمات في يوليو عام ١٩٢٣ وهو في السادسة والثلاثين من عمره ، أما حافظ فقد امتد به العمر إلى يوليو عام ١٩٣٢ فتوفى وهو في الواحدة والستين .

أما شخصية أحمد شوقي أمير الشعراء فقد كان عبد الحليم يكبرها أعظم الأكيابر ، وكانت تنزل من قلبه في أعز مكان ، وكان يقارض أمير الشعراء الشفاء :

قربتني حتى إذا استحوذتني أكبرت منزلتي بصدر المحفل .
ولبثت تجرى في سماعي صاقيد من ماء شعرك كالرحيق السلسل .
فتنفض طرفك تارة عن عثرتي وتقبلها طورا بغير تدلل .
فإذا تبنيت امرا فأنا الذي يرعى الأبوة في الزمان الحول .

وكان لكرمة ابن هانيء أثر كبير في نهضة الشعر العربي الحديث حيث كان يلم بها الشعراء والكتاب والفنانون من كل مكان ، وكان أحمد شوقي صاحب هذه الكرمة يفسح لهم من مجلسه ويتجاذب معهم أطراف الحديث في الشعر والفن والادب ، فهذا ينشد أبياتا من الشعر ، وذلك يقص نادرة طريفة من ذخائر الادب العربي ، وذلك ينقل أثرا من آثار الشعراء في الغرب ، فيغمر الكرمة كلها فيض من الادب والفن ، وكان عبد الحليم من رواد هذه الكرمة ويشعر بسعادة لا تلائمها سعادة في حضور هذه الجلسات الشجية ونظم احلى قصائده بين أجوائها فقال :

شربت سبعا من هوى صاحبي هن من الخمر سبع مثنان
ثم استقي مثلي فصرنا معا كأننا بين قطبنا زيان
نخترق المجلس من مسكرتنا آنا ونجرب في نواحيه « آن »
كأننا المجلس بحجر طمنا ونحن في لجته زورقان
في كرمه الملك التي خلقتها كأنها بعض معاني ابن هاني
قصيدة الروض وببيت النبطي وحكمة الحسن وحسن المعاني
يزدحم السعد عليها كما يزدهن النور على الزبرقان
أقصر « شيرين » بسكانه أم هفه عدن يحور الجنان
وعرش بلقيس بها قائم وتاج بوران مع الصبولجان
أم منزل النعمان بين الحمى أم سر من رأين تلك المفسان
أم قصر ملك الطير في جوها سيدنا شوقي أمير البيان

هذه هي قصيدة عبد الحليم المصري في كرمه ابن هانيء وقد نظمها عند زفاف نجل أمير الشعراء في ليلة المهرجان ، وضما سحر هذه الكرمه .

وفضلها على الأدب وأثرها في تنمية قريحة الشعراء ، واذكاه مشاعرهم ، وقد كان عبد الحليم المصري أحد هؤلاء الشعراء الذين فتنوا بسحرها وترنموا بفننها ، وحاول أن ينهل من الينابيع العذبة من الشعر العربي القديم التي ارتوى منها أمير الشعراء .

وتوضح بعض قصائده عبد الحليم المصري حنينه إلى أرض الشام العاطرة ذات التاريخ الحافل والمجد الأثيل ويتمنى أن يحيا في رحابها ويعيش بين أكتافها لولا صروف الدهر وضرورات الحياة وتأدية واجبه حيال أهله وأسرته وأبنائه .

وفي ذلك يقول :

يا طائر البن أثرت الفرام هل انت مثل مفرم يا حمام
جذدت بى دائى وغادرتنى كأننى سقم بصدر السقام
« لولا بنيات كزغب القطا » ونسوة خطبى عليها جسام
وحب أرض طال عودى بها وبعض قوم فى رباعها كرام
لما وضعنا الدهر رحلا بها ولا ضربنا فى رباعها الخيام
ولا نتجعنا الشام حتى نرى نضارة العيش وطيب المقام

وقد تعرض عبد الحليم المصري في هذه القصيدة إلى ما يلاقيه من ألم في بلاده ، وإلى محاولة النض من قيمته والاختفاء من قدرته برغم الجهود التي يبذلها في خدمة الأدب ورفع رايته .

لاكنت لى يا أدبى حرقلة ان كان من عليك قلرا يضم
مصر بنا ضاقت فما حالكم فى أرضكم يا شعراء الشام

وقد اجتمع عبد الحليم على أثر نظم هذه القصيدة ببعض الشعراء المصريين وكان بينهم الشاعر أمام العبد فما وصل إلى ذكر الشعراء في مصر حتى نال منه الوجدان وغرورقت عيناه ، ولمرتد حزنه إلى فؤاده بعد أن ارتسم على أسارير جبهته . فأخذ يردد هذه الأبيات ويسابقه في النطق بها لسان اللمع فنظم عبد الحليم بيتين أضافهما إلى قصيدته وهما :

أصبحت لا أصبحت فى حاله وهكذا أمسى صديقى أمام
ان كان هذا الحظ لا ينجل يا دولة الشعر عليك السلام

ومن يتأمل البيت السابق من القصيدة السابقة يلاحظ أن عبد الحليم يلجأ كعادته إلى محفوظه ومقروئه من الشعر القديم فيستعير عبارة من أبيات الخطبة التي أنشدتها في حضرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليخلصه من سجنه المظلم (١) .

(١) هي « لولا بنيات كزغب القطا » وهي شطر من بيت الخطبة :
لولا بنيات كزغب القطا : يمشين من بعض إلى بعض . . .

وقد رد على عبد الحليم أحد شعراء الشام في بحجة الزهود عام ١٩١٠
ووقع قصيدته باسم ف • نصار • وجاء فيها :

يا شعراء النيل لا تجزعوا قد صافحتكم شعراء الشام
لا كنت لى يا موطنى مسكننا ان كان فيك الحر خلقا يضام
ورد على عبد الحليم شاعر جديد من البرازيل يدعى فايز النسمانى
فقال :

يا بابل الشعر عليك السلام شامنا مصر ومصر الشام
ملك بالقطرين من منهل ولى وراء البحر طاب المقام
قد قيل أن الشعر طيارة فاركب وطرف فوق طبق التمام
فالبدر مشتاق لوصفه فاقصده وأضرب فى حماء الخيام
أو فاحترم غير القريض وقل يا دولة الشعر عليك السلام
وعندما غمرت المياه قسما من هيكل أنس الوجود ، وطغى على جزء
من هذا الاثر البديع المشيد على عمد فى ماء النيل بالقرب من شلال اسوان
حتى بات يخشى أن ينهب أثرا بعد عين نظم الشاعر عبد الحليم المصرى
قصيدة باكية بعد ما نظم شوقى قصيدته التى قل فيها :

قف بتلك القصور فى اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا
كعدارى أخفين فى الماء بضبا مباحات به وأبدنين بضبا
وجاء فى قصيدة عبد الحليم :

وقف عليك دموى أيها الطلل عيني اليك وقلبي للآلى رحلوا
أرسلت بالعين فى سقياء هامية وفى الطبول أنبوالى ترسل المقل
يا أيها الطلل المزور جانبه هون عليك كلاتا بصلهم طلل
وقفت بليم رسما لأحراك به وإليم مضطرب والموج مقتتل
الدهر مل وآى الدهر كامننة فى وجهك الطلق لا يبدو بها ملل
ومن أروع ما نظم عبد الحليم فى الغزل هناك البيتان اللذان
يسيلان رقة وعذوبة ويتدفقان حلاوة وطلاوة :

غرست هواك فى قلبى ربيعنا فشب وشببت فى زمن قريب
فمأ أنا راجع زمن التصبى ولا هو بالغ زمن المشيب
كما قال فى وقفة بينه وبين المحبوب :

ولما استقرنا بالظلام عن الورى ولم نستطيع ستراعن الدمع والعتب
تنكرنى عزمى وغابت فصاحتى فانظرتها صمتى وشجعها رعبى

كما نظم عبد الحليم المصرى قصيدة رائعة يذكر فيها أيام طفولته ،
ومراجع حبه ومراجع صباه فقال :

طوت عهود الصبا يد القصر	وشويت صفوحى بالكدر
طفولتى أين أنت من زمنـ	وأين ليل الغرام من سمر
طفولتى رذك الزمان وكـم	أعطى ورد الزمان من أئـمـر
طفولتى هل اذا ذكرتـك بالسمع	تفيد النـمـوع فى الذكـر
يرحم الله منك ماضية	من الليالى مضت مع العـيـر
زمان كانت فلانة معنا	درة تجتلى من الدرر
زمن كئن الهوى لعهدك بى	رضيع ندى الاتصال والبكر

ولا يبرح الشاعر حتى يذكر لهوه ومرحه مع الفتيات وهو غر صغير
لا يحمل من هموم الحياة شيئا ولا يحتفظ من أوقاها بشئ فيقول :

أين نداء البنات ياولد	يمزجن جد المقال بالهـنـر
وهن مثل القطا اذا انتثرت	يلقطن حب القلوب فى انسـحـر
تمشى التى لا اسمها بمنكشف	عندى ولا حبهـا بمسـتـر
مشى غزال النقا اذا طرحت	عليه اجلى حبال النظر
خضباء من دمعها على زمن	كنـأه درتين فى نهـر
تكاد فى العين من ملاحظها	تنزل فى العين منزل الحـور

ويختتم الشاعر قصيدته بالشكوى من الحب ، وناره ، والغرام
وأواره فيقول فى دمع هتون :

آه من الحـب لا رماك به الله	غان المحـب فى سـمـر
فاختبر أمره على حـنـر	منه فليس العيان كالخـبـر
يا ويلتـأ عليك يا كـبـدى	من حاكم جائر ومقتـدـر
لقد جهلنا الغرام فى الصغر	وهل عرفنا الغرام فى الكـبـر
أخطـر فى الرعوس منبـعـث	شعاعه فى النفوس بالشر
وهاجس جاعل مطـبـوعه	بين الورى سـخـرة من السـحـر
وحاجة كل أمرها عجب	منوطة بالبكاء والسـهـر
طلسم تلك لست أعرف من	يحلها غير قطـر البـشـر

ولا يلبث هذا الشاعر الذى ينوب ولها وتدلها أن يبنو بطلا يتدفق
حماسه وشهامة فى قصيدته الشرق والغرب ، ويهيب بأبناء الشرق أن
ينفضوا عنهم السبب :

يا نفوسا فى ربي النيل رأت
رائحت كل يوم برضا
كلما طار صدى ما بينهما
هب الناس اليه موكبا
كلا الله رجلا كلا
أرضهم حتى قضوا مأوجبا
حاول الجبار أن يقرأها
فرأى فى كل حرف عقربا
فيكي كالطفل عينا وفما
وطواها فضحكنا عجبنا
ثم لا يلبث أن يهدد الغرب الذى
يفرقه لينهش الشرق الجميل
فيقول متوعدا مهلدا :

ويك يا غرب اتق الشرق قلم
قوة كالنصار لو جاوزها
أو كامواه ترامت من عل
كم قلوب يتمازغن هوى
ضيمعة كانت فواتنت
كم ضياع ردت لن سلبا
وكانا يخاطب الشاعر أبناء
العروبة عبر السنوات الحالية فيقول
مثيرا الحمية موقدا الوطنية :

يا رجلا لفتوا المهر لهم
فمتى أملوا عليه كتبنا
وب قول فى دم المرء جرى
وحسبم فى يد المرء نبنا
لاسمى القيث ثرى مصر اذا
هو لم ينبت رجلا نجيبنا
انفسا طابوا وقروا أعينا
وعلا زادوا وطالوا حسبنا

تلك هي صفحة مطوية من حياة عبد الحليم المصرى الشاعر المنسى
الذى أسهم فى الحركة الادبية فى أواخر القرن الماضى ، ونحو الربع الاول
من القرن العشرين وجمع بين حدة السيف ، وبراعة القلم .

من القرن العشرين الميلادى

أحمد أمين

أديب كبير ، وعالم جليل ، ولد بالقاهرة فى الاول من أكتوبر عام ١٨٨٦. وابتدأ دراسته بكتّيب مختلفة ، وبمدرسة وائدة عبّاس الاول الابتدائية المسماة الآن بنبا قادن ، ثم الأزهر ثم مدرسة القضاء الشرعى فدل العالمية منها عام ١٩١١ .

ثم عين مدرسا بمدرسة القضاء الشرعى فى السنة نفسها الى سنة ١٩١٣ فعين قاضيا فى محكمة أسبوط الشرعية ، ومنها انتدب لمحكمة الواحات الخارجية ، وبقي بها ثلاثة أشهر ، ثم عاد مدرسا بمدرسة القضاء الى عام ١٩٢١ ، فعين قاضيا فى محكمة طنطا ، وانتدب لمحكمة قويسنا الجزئية ، ثم انتقل الى مصر وانتدب لمحكمة طوخ الجزئية ، ثم انتدب لمحكمة الأزبكية ، وظل بها الى عام ١٩٢٦ ثم عين مدرسا بكلية الآداب بجامعة القاهرة فاستاذًا مساعدا فاستاذًا الى أن أحيل الى المعاش فى الاول من أكتوبر عام ١٩٤٦ وفى الاول من يناير سنة ١٩٤٧ عين مديرا للإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية .

ونال الدكتوراه الفخرية فى ١٥ من فبراير عام ١٩٤٨ من جامعة القاهرة تقديرا لخدمات التى أداها للكلية .

كما نال جائزة الدولة وعين مديرا لإدارة الثقافة بوزارة التربية والتعليم واختير عضوا للمجلس الأعلى لدار الكتب وأستاذًا غير متفرغ بكلية الآداب بجامعة القاهرة . وسطع نجمه فى الصحافة الادبية عام ١٩٣٤ فى الرسالة والثقافة وكان مديرا لها ثم مجلات دار الهلال ، وكذلك تألّق نجمه بالإذاعة المصرية والإذاعات العربية الأخرى .

وتوفى فى يوم الأحد الموافق ٣٠ من مايو عام ١٩٥٤ وأطلق اسمه على أحد شوارع مصر الجديدة ، وخصصت جائزة باسمه لأول الحائزين على لينسانس الآداب فى قسم اللغة العربية بجامعة القاهرة كل عام ، وهذه الجائزة مجموعة كاملة من كتبه .

ومكتبة أحمد أمين الآن فى إحدى قاعات المؤتمر الاسلامى تحمل اسمه .

وقد وصف الدكتور أحمد أمين فى كتابه « حياتي » دراسته الأولى فى كثير من الصراحة فحكى حياته الأولى فى الكتاب دون كذب ودون رياء ، وقصة تعليمه بالأزهر ، ومدرسة القضاء الشرعى ، وروى قصة تعيينه مدرسا فى إحدى مدارس الاوقاف بالامسكندرية بمرتب أربعة جنيهات وهو فى الثامنة عشر من عمره ، وقد سافر الى هناك فولى البحر

لاول مرة فى حياته وجلس اليه وآنس به ، واستأجر حجرة فى بيت بالقرب من مسجد البوصيرى أودعها فرشته وملابسه وكتبه ودراهمه ، ثم عاد يوما من المدرسة فوجدها قاعا صنفصفا ، خالية كيوم استأجرها فاتفق مع مدرس فى مدرسة أخرى أن يستأجر معه شقة من غرفتين فى بيت عليه بواب ، وكان صاحبه رجلا كهلا نحيفا الجسم ، أصفر الوجه ملتجعا ، متدينا فى تزمت .

وعند ما أراد الالتحاق بمدرسة القضاء الشرعى كان يخاف نتيجة الكشف الطبي لضعف بصره .

وفى مدرسة القضاء الشرعى تلقى الدروس على الشيخ الحضرى والشيخ المهدي ، وهما من فئة تعودت النظم والقدرة على الايضاح ولم تلتزم عبارات الكتب وان التزمت موضوعاتها ، واتصلت بالشيخ محمد عبده ، وكانت من خاصة تلاميذه ، تعتنق مبادئه وتستشير بأرائه وتوجيهاته :

فدرس له أصول الفقه الشيخ محمد الحضرى وكن لبقا لسند ذكيا واسع الاطلاع ، يجيد اللغة العربية وفروعها ، والتاريخ الاسلامي ، ودرس له الشيخ محمد المهدي آداب اللغة العربية وكن هذا الادب حديث العهد فى مصر ، فالنس لم يكونوا يعرفون الاداب الا على النحو الذى جاء فى مثل كتاب الاغانى والعقد الفريد والامالى ونحو ذلك .

ودرس له فى مدرسة انقضاء الشرعى كذلك الشيخ محمد زيد وهو رجل وقور تمرن على التدريس بمدرسة الحقوق فنقل القصة من كتب الازهر الى صورة مستحقة ودرس له جمهرة من المدنين منهم على بك فوزى الذى درس فى مدرسة المعلمين وتخرج فى معاهد انجلترا وكان يلقى عليه دروسا فى تاريخ اليونان والرومان أحيانا وتاريخ أوروبا الحديث أحيانا والتاريخ الاسلامي أحيانا ، واحمد فهمى العمروسى بك وهو الذى تعلم فى مصر وتعلم فى سانلكو بفرنسا ، وكان يدرس له الطبيعة .

ودرس له عاطف بركات علم الاخلاق من المصادر الاوربية ، وكان يرجع الى كتب ماكنزى فى علم الاخلاق وأحيانا كتساب مذهب المنفعة لجون ستيوارت ميل .

وكان من أصلوقائه العالم الكبير الاستاذ الشيخ مصطفى عبدالرازق وكان شابا تقديما يقضى معه أغلب لياليه فى سمر شجى لذيذ .

واحصل أحمد أمين بالجامعة الاهلية وحضر بعض دروسه ورأى فيها لونا من الوان التعليم لم يكن يعرفه من حيث الاستقصاء فى البحث ، والتعمق فى الدرس والصبر على الرجوع الى المراجع المختلفة ، ومقارنة ما يقوله العرب وما يقوله الفرنج ، واستنتاج هادى رزين من كل ذلك .

وأعجبه من دروسها محاضرات يلقها الاستاذ نلليو فى تاريخ الفلك ، عند العرب ، ومحاضرات فى الفلسفة الاسلامية يلقها الاستاذ صانتلانا .

وقد تعلم أحمد أمين اللغة الانجليزية فى مدرسة ليلية (تسمى برليتز) وذهب الى المدرسة ورتب دروسا ثلاثة فى الاسبوع بمائة وخمسين

قرشا لكل شهر ، واشترى الكتاب الاول ، وتولت تعليمه سيدة انجليزية تحسن الانجليزية لانها انجليزية وان لم تكن مثقفة الا الثقافة الضرورية ، غير أنه بذل جهدا كبيرا في اتقان اللغة فكان يحفظ في الطريق ويقرأ في البيت ويستذكر اذا كان مرافقا في الامتحان أو مشرفا على حصة الصاب الرياضية وما الى ذلك .

ثم رجع الى أحد الكتب عن الاسلام ليقرأه بالانجليزية وكان بقلم السيد امير على فصعب عليه المضي في القراءة ، فعاد مرة أخرى الى اتقان اللغة وتلقى الانجليزية على يد (مسن يور) ثم على سيدة انجليزية أخرى في ريمان الشباب تعيش مع زوجها الانجليزي المدرس بالمدرسة الخديوية الثانوية عيشة اربستقراطية فخمة ، وكان يقضي ساعتين في الدرس معها مرتين في الاسبوع ، ساعة تعلمه الانجليزية وساعة يعلمها هو العربية .

ومن الطريف ان الدكتور (أحمد أمين) يحكى في كتاب « حياتي » صفحات صريحة عن شبابه فيروي أنه صادف عناء كبيرا في الزواج فكلما دله صديق على فتاة يراها فاما أن يجد مانعا منها أو تجد هي مانعا منه . فما يرضيه لا يرضيها ، وما يرضيها لا يرضيه ، وأخيرا دله مدرس في مدرسة القضاء على بيت رضىه ورضى البيت به فأرسل أمه وأخته وزوجة الاستاذ لرؤية الفتاة فرأينها ووافقن عليها ، وأخيرا رآها وتم عقد الزواج في ٣ من أبريل عام ١٩١٦ وقد أخذ يوم المقد مائة جنيه انجليزية ذهبية في علبة جميلة قدمها مهرا للزوجة وانتظر نحو أربعة أشهر حتى يتم أهل الزوجة الجهاز .

وأطرف من هذا أن الدكتور أحمد أمين يقول : انه كان من رأيه الاقتصاد على ولد أو ولدين شعورا بمسئولية التريبة وتوفيره للزمن الذي يحتاج اليه في التحصيل والدرس وتمشيا مع النظرة التي يراها وهي أن الامة المصرية مكتظة بالسكان ، ولكن زوجته كانت لا ترى هذا الرأي ، وقد نصحتها بعض قريباتها بالمثل المشهور « قصيه لئلا يطير » .

وفي ١٩١٤ أسس أحمد أمين لجنة التأليف والترجمة والنشر واختير رئيسا لها من يوم تأسيسها حتى يوم وفاته .

ودق جرس التليفون يوما بمنزله في مصر الجديدة وهو قاضي بمحكمة الازبكية عام ١٩٢٦ فاذا المتكلم صديقه طه حسين يطلب مقابلاته وذهب لمقابلاته فاذا هو يعرض عليه أن يكون مدرسا بكلية الاداب ، فتردد قليلا ثم قبل لنفوره من القضاء وحبه للتدريس وذهب الى الكلية لأول مرة حيث قصر الزعفران الآن .

ومن ذلك الوقت هيأت له الجامعة رحلات خارج القطر ، وكان شبابه قد أوشك أن ينقضي وهو لم يبرح القاهرة الا حين عين موسسا بطنطا والاسكندرية أو مدرسا في الواحات ، فسافر أحمد أمين الى أوروبا وزار باريس ، والامستاتنة ، ثم زار بغداد وطاف بالعراق وغيرها من بلاد الشرق العربي .

واقام بانجلترا نحو أربعين يوما ، وحضر مؤتمر المستشرقين في لندن ، كما ذهب الى مؤتمر المستشرقين في بروكسل ببلجيكا ، وزار إيطاليا ،

وسويسرا حيث أقيم عدة أيام في مدينة لوسرن ورأى بحيرتها ،
واستمتع فيها بجمال منظرها الطبيعية الباهرة .

وطاف بأحدى القرى التي على البحيرة واسمها (كريستين) مع
صديقه الدكتور عبد الوها بعزام .

وكان أحمد أمين دائم الاطلاع ، لا يميل الى الاجتماع كثيرا ولا يحب
يوما يمر عليه دون أن يخلو فيه الى نفسه ، بعيدا حتى عن أولاده وأهله ،
وكان يستمر في القراءة الى نحو الحادية عشرة فينام ، وقد وضع مصباحا
كهريا بجوار سريره يقرأ عليه حتى يفشيه النوم .

وكان في بدء حياته العلمية كثير الفسراغ ، يصرفه في القراءة
والكتابة . فآلف فجر الاسلام وضحاها ، ثم قل فراغه بإشتغاله بكثرة
المجالس واللجان ، وكان يحس بنزعة صوفية غامضة ويشعر في بعض
اللحظات بماطفة دينية تملا نفسه وتهز قلبه ، وأكثر ما يتجلى هذا
الشعور عند شهود المناظر الطبيعية الرائعة ، كالزراع الواسعة والأشجار
الليانة ، وطلوع الشمس وغروبها ، والبحسار وأمواجها والطيور
وتفريدها .

وكان من عاداته في يوم الجمعة أن يذهب الى حلوان أو الاهرام
أو القناطر الخيرية أو نحو ذلك لينسى القراءة والكتابة ، وكان يصيف في
الاسكندرية أو رأس البر ، ولم يعتد كيفاً من الكيوف الا الدخان ،
كما لم يتعود أن يضيع وقته في الجلوس الى مقهى الا لمقابلة في عمل ، فان
مال الى اجتماع بالناس فمع أصدقائه في لجنة التأليف كما تعود الا يضيع
وقته في لعب أو فرد أو شطرنج .

وكان شديد الخوف على سمعته الاخلاقية فيتألم أشد الألم من كلمة
تنشر اذا مست خلقه ، ولكنه كان واسع الصدر جدا فيما يمس آراءه
وأفكاره ، فلا يحزنه نقد كتبه ، ولا نقد آرائه ، وكانت
له الشجاعة في قول الحق والتزام الصدق ، واحتمال الحرمان من مال
أو جاه ، ولكن ليس له الشجاعة في احتمال شوكة تصيب أولاده ،
أو شيء يمس شرفه .

وكان شديد الحساسية لكلمة تمسه أو لفعل يجرحه ، ولا ينام
الليل لكلمة نابية سمعها ، أو صدرت عنه في حق صديق له .

مزاجه الطبيعي عصبى غير عاى ، غير أن التربية هي التي خفت
من حدته ، وضبطت من نفسه .

حيى خجول يغشى المجلس ، فيتعثر في مشيته ، ويضطرب في
حركته ، يضادف أول مقعد ليرمى بنفسه فيه ، ويجلس وقد لف الحياء
رأسه ، وغض الخجل طرقة وتقدم له القهوة فترتفع يده ، وترتجف
أعصابه وقد يلدري ذلك فيتظاهر أن ليس له فيها رغبة ولا به
اليها حاجة .

وآلف أحمد أمين عدة كتب هامة منها « فجر الاسلام » الذي درس
فيه الحياة الجاهلية دراسة مستفيضة مدعمة بالمراجع والكتب ، وقد صدر

فجر الاسلام عام ١٩٢٩ وتبع هذا الكتاب ضحى الاسلام فى ثلاثة أجزاء ، ثم ظهر الاسلام فى أربعة أجزاء وقد طبعت أجزاءه الاولى ست مرات ، واصبحت هذه الكتب الثلاثة من أهم المراجع التى يرجع اليها الطلاب والباحثون .

وقد درس فى هذه الكتب الحضارة الاسلامية دراسة واعية مع بيان العناصر المكونة لها والظروف التى أدت الى ظهورها ، فتكلم عن الناحية العقلية من هذه الحضارة ، والناحية الادبية والناحية الدينية ، وقال فى مقدمة الجزء الاول من ضحى الاسلام : « لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تارىخ أمة هو تزيغ عقلها فى نشوئها وارتقائها وتارىخ دينها ، وما دخله من آراء ومناهج ، ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود وما يطرأ عليها من تفسير ظاهر جلى ، أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ؟ وكيف نمت ؟ وما العوامل فى إيجادها ؟ وما العنصر التى غذتها ؟ وما الطولوى التى طرأت عليها فصلتها أو صقلتها اذا حاولت ، أعياك ذلك ، وبلغ منك فى استخراجها الجهد . . »

وتتضح من هذه الفقرة الطريقة التى استخدمها أحمد أمين فى تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين منذ نشأتها حتى العصور الحديثة ، فى كتابه « ضحى الاسلام » .

أما « ظهر الاسلام » فالجزء الاول منه يبحث فى الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل الى آخر القرن الرابع الهجرى . والجزء الثانى يبحث فى تارىخ العلوم والاداب والفنون فى القرن الرابع ، والجزء الثالث الذى طبع بعد وفاته يبحث فى الحركات الدينية المختلفة ، أما الجزء الخاص بالاندلس فيبحث فى الحياة العقلية منذ فتح الغرب للاندلس حتى خروجهم منه .

ومن مؤلفاته أيضاً « يوم الاسلام » وقد صدر عن دار المعارف بالقاهرة وقاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، ويجلو هذا القاموس ناحية طريفة من نواحي الحياة الشعبية عند المصريين حيث أخذ يدرس تقاليدنا الشائفة فى الزواج والافراح والمآتم ، والاحزان ، وغاص الى أغوار الحياة المصرية الصميمية فى الازقة والحارات ، والقرى والحقول وصور لنا تارىخ الشعب المصرى متجلبا فى عاداته وتقاليد ، تصويرا خلابا جذابا يستهوى القلوب والأفئدة .

ومن مؤلفاته كذلك كتاب « فيض الخاطر » وهو فى عشرة أجزاء ويضم طائفة كبيرة من المقالات التى نشرها فى الثقافة والرسالة والهلل والمقتطف وغيرها من الصحف والمجلات ، وتضم هذه المقالات دراسات أدبية وأخرى تاريخية وتراجم لبعض الشخصيات الاسلامية ومقالات نقدية وخطرات نفسية يعبر فيها أحمد أمين عما يجيش فى نفسه من مشاعر وأحاسيس .

ومن مؤلفاته أيضا كتابه « حى بن يقطان » الذى درس فيه هذه الشخصية التاريخية المعروفة بالرحلات وجوب الافاق دراسة ممتعة مشوقة .

ومن كتبه أيضا كتاب النقد الادبي فى جزاين ، وقد حلل فى الجزء الاول النقد الادبي ، وبين الغرض من دراسته ، وخضوعه لقواعد خاصة واتصاله بالفلسفة ، وضرورة فهم الجو الذى ينشأ فيه المؤلف ثم بين قيمة الدراسة التاريخية فى فهم الادب وطريقة الناقد « تين » العلمية فى خضوع الادب لعناصر ثلاثة وهى الجنس والوسط والزمن ، ويعنى بالجنس ما يورثه الناس من المزاج والنفسية ، وبالوسط الاوساط المحيطة بهم من مناخ وبيئة طبيعية وأحوال سياسية واجتماعية ونحوها ، وبالزمن روح العصر أو روح تلك المرحلة المعينة للتطور القومى الذى وصلت اليه الامة فى ذلك العصر . ثم بين أن النقد أقرب الى الفن منه الى العلم .

ثم تحدث عن عناصر الادب من عاطفة ومعنى وأسلوب وخيال وعن المقاييس التى تقدر العواطف والاشياء التى تعتمد عليها فى هذا التقدير وعن تعريف الخيال ، وقيمتها فى الادب وارتباطها بالسواطف ، ثم عن المعانى وما يجب اشتراطه فيها ، وعن الادب والحياة الواقعية ، ثم عن نظم الكلام وكيف تنقل الفكرة وتعرضها .

ثم تكلم عن الشعر ، وما الذى يجب أن يتوافر فيه من شروط ، وأهم الفروق بين الشعر والنثر ، والشعر والموسيقى ، والشعر الذاتى ، والشعر الموضوعى والشعر التمثيلى حتى اذا ما انتهى من الحديث عن الشعر انتقل الى النثر فتكلم عن الملازمة فى النثر وفائدة دراسات السير فى الادب وأقسام النثر ، وكلمات عن المقالة والقصة الطويلة والتمثيلية وما اليها من فنون النثر .

ثم درس العناصر الاساسية للأسلوب ، وتكلم عن الرواية والفرق بين القصة والرواية والمسرحية ، وأنواع الدراما ، والدراما ونقد الحياة وما الى ذلك من بحوث فنية .

ثم تكلم عن النقد وتصنيفه ، وضرور النقد ، وفائده ، ومهمته ، والنواحي التاريخية من دراسة النقد كادب ، فاستشهادات متفرقة .

أما الجزء الآخر من الكتاب فخصصه المؤلف لتاريخ النقد عند الافرنج وعوامل انحلال الكلاسيكية الحديثة ، وشرح دور « لسنج » وجرى ، وجان جاك روسو ، فى النقد ، وبين أثر مدرسة الجمالين فى النقد والفرق بين الحركة الكلاسيكية . ثم تكلم عن نهضة النقد على يد وردورث وكولردج فى انجلترا ، وسنت ييف وفكتور هوجو ونيزار فى فرنسا ، وجوته وشيللر فى المانيا .

ثم تحدث عن خلفاء سنت ييف فى فرنسا ، ودور كارليل وماثيو ارنولد فى توجيه النقد فى انجلترا . وتعرض لتاريخ النقد عند الاوربيين فى القرن العشرين .

كما تعرض فى هذا الجزء لتاريخ النقد عند العرب منذ الجاهلية حتى العصر العباسى .

وقد نشرت هذا الكتاب لجنة التأليف والترجمة والنشر عام ١٩٥٣ . ويعد من أمتع الكتب التى ألفها الدكتور احمد أمين .

ومن كتبه أيضا « الصلابة والفتوة في الاسلام » وقد درس فيه ناحية غير مطروقة من حياة العرب دراسة علمية منظمة وتعرض للشعراء الصعاليك الذين كان لهم دور كبير في انعاش الادب العربي واضفاء لون جديد من الشعر والشعور على التراث العربي القديم .

وآلف كتاب « المهدي والمهدي » و « الى ولدى » وهو مجموعة من الرسائل التي خطها يراعه في تصحيح ابنه وتعتبر من أمتع الوصايا الادبية التي يوجهها والد الى ابنه .

وآلف أحمد أمين كتاب « هارون الرشيد » ودرس فيه شخصية هذا الخليفة العظيم الذي جمعت شخصيته كل المتناقضات في الدنيا فهو رجل ورع قتي ، يحرص على الصلاة والزكاة والصوم ، ويؤدى الفرائض ، وتسمع عيناه اذا تلا القرآن أو سمعه ، وهو بعد ذلك رجل يحب الحياة ويطرب من الغناء ، ويسر من الموسيقى ، ويجمع في بلاطه القيان والمغنيات وينقض عليه الليل وهو لا يزال يحيا في هذه الاجواء المزهرة المشرقة .

فدرس الدكتور أحمد شخصيته وحللها تحليلا دقيقا في أسلوب سهل جميل ، ودراسة علمية منظمة وامتناعات سليمة واعية .

كما آلف الدكتور أحمد أمين كتاب « زعماء الاصلاح في العصر الحديث » وتكلم فيه عن هؤلاء الاعلام الذين أسهموا في بناء النهضة الفكرية ، وتدعيم أسسها ، فتكلم عن رفاة الطهطاوى والشيخ محمد عبيد ، وعبد الله النديم وغيرهم من الاعلام .

أما كتبه بالاشتراك فهي كتاب قصة الفلسفة اليونانية مع الدكتور زكي نجيب محمود والناشر لجنة التأليف .

وكتاب قصة الادب في العالم في أربعة أجزاء ودرس فيه مختلف الآداب في العالم من قديمه وحديثه ، وشرقيه وغربيه ، مع الدكتور زكي نجيب محمود والناشر مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة .

واشترك الدكتور أحمد أمين في نشر بعض الكتب القديمة ، فنشر الكتب الآتية : الامتاع ، والمؤانسة ، وديوان الحماسة ، والعقد الفريد ، والهوامل والشوامل ، وخريدة القصر وخريدة العصر .

وقام فضلا عن ذلك بترجمة كتاب مبادئ الفلسفة .

واشترك في تأليف مجموعة من الكتب المدرسية نذكر منها المنتخب في الادب العربي والمفصل في الادب العربي ، والمطالعة التوجيهية ، وتاريخ الادب العربي .

وفي ٣٠ من مايو عام ١٩٥٤ انتقل أحمد أمين الى جوار ربه وكان على تمير الاستاذ أحمد حسن الزيات في أعقاب عمره « دنيا من العلم والادب في هيكل يال من العضل والعصب »

وانفضت بموته تلك الحلقة التي كان يعقلها كل خميس بدار التأليف والترجمة والنشر ويختلف اليها أعضاء اللجنة وأصدقائها من العلماء والادباء ، وكان أحمد أمين واسطة الحلقة والرأس المنظم لما يدور بها .

من القرن الاول قبل الميلاد

كليوبتره

ان لكليوبتره ينما بيضاء على الادب ، اذ يرى المؤرخون انها كانت تقيم في قصرها حفلات تدعو اليها رجال العلم والادب ، وانها كانت لاتنذر بسعيا في الاغداق على أهل الفن ، وقد نبغ في عصرها كثير من مؤلفي المسرحيات والشعراء والفنانين .

وهكذا كانت كليوبتره تخدم الادب في حياتها ، فلما فاضت روحها الى بارئها ، وتوارت عن هذه الدنيا ، ظلت تخدم الادب بذكراها ، واصبحت وحيا لكثير من القصصيين والشعراء وكتاب المسرح ، ولم تصبح حياة كليوبتره مقصورة على شعب من الشعوب او بيئة من البيئات ، وانما أصبحت شخصية عالمية يستمد منها الوحي جميع الفنانين في بقاع الارض .

فأثرت كليوبتره في الادب المصري ، كما أثرت في الادب الانجليزي وأثرت في الادب الفرنسي ، كما أثرت في غير ذلك من آداب العالم ، وكتب عنها كثير من المؤرخين الالمان والروس ، والامريكيين والهنود .

ومن الكتاب الذين استملوا من كليوبتره وحيا لهم في انتاجهم الاولى في أوربا الكاتب الفرنسي « توفيل جوتييه Theophile Gautier » الذي كتب قصته « ليلة مع كيلوبتره » واستمد وقائعها من ناحية هذه الملكية العظيمة ، والمعروف أن جوتييه كان من اعلام الادب في فرنسا في القرن التاسع عشر ، وقد تأثر تأثرا كبيرا بالكاتب الفرنسي الذائع الصيت بلزاك زعيم الواقعية .

كما كتب الكاتب الفرنسي هنري بوردو قصة أخرى عن كليوبتره بعنوان « أنف كليوبتره » ووصلق في قصته قول بسكال « لو كان أنف كليوبتره أصغر مما كان قليلا لتغير وجه العالم » .

وكتب كلود فرفال كذلك قصة عن كليوبتره صور فيها مصرع قيصر وفجعية كليوبتره في موته ، وكان من المفروض أن يحتفل قيصر بزواجه منها بمجرد عودته منتصرا من حملته في بلاد الفرس .

وكتب الكاتب الانجليزي ريدر هيجارد قصة طويلة عن كليوبتره واستقاها من بعض لغائف أوراق البردي التي عثر عليها في إحدى المقابر التي في ليبيا .

كما كتب هنري توماس بعض المذكرات عن حياة كليوبتره « والعلاقة بينها وبين كالبورنيا » زوجة قيصر ، وكانت على جانب من الذكاء والدهاء ، وكانت منافسة لها في حب قيصر .

وكتب المؤرخ الالماني « أميل لودفيج » قصة حياة كليوبترة • وصور ذلك النعيم الذي استمتعت به كليوبترة بين أحضان القائد الروماني ، وكيف حاول أن يمد شهر العسل حتى يستغرق سنوات وسنوات ، ثم انجب توأمين من زوجته أوكتافيا غير أن كليوبترة أرادت أن تضع حجاباً صفيقاً وسداً منيعاً بينه وبين ماضيه • وقد وجدت كليوبترة في ذلك الجندي الخشن المحب الذي يرضى مطامعها •

وآلف الكاتب المسرحي الكبير « ولیم شكسبير » مسرحيته الخالدة « أنطوني كليوبترة » على أساس من تاريخ بلوتارك ، وصور شكسبير في مسرحية كليوبترة صورة رائعة ، فهي ليست امرأة هلوكة متبذلة كما صورها بعض الكتاب الغربيين إنما هي ملكة قوية الشخصية شديدة الذكاء ، عميقة الدماء ، وأنطوني رجل قوى البأس شديد المراسن ، يمتاز بالمعاطفة القوية ، والشعور الفياض ، ويحب كل الآخر حياً بالغا ، ولا يخفص هذا الحب من قدرهما ، أو يفض أو ينقص من شأنهما حتى يتنكر لهما الزمان ، وتلدور عليهما عجلته •

وآلف الكاتب الايرلندي الساخر « برنارد شو » مسرحية أخرى عن « قيصر وكليوبترة » وليست كليوبترة عند شو مستوى فتاة صغيرة في السادسة عشرة من عمرها ، يقابلها « قيصر » في حضي الصغراء وتحت ظلال أبي الهول وهو يرسل اليه نفثاته وخلصات قلبه في أسلوب شاعري جذاب •

وعندما أخرج برنارد شو هذه المسرحية إلى الناس قال : « خذوا هذا •• انه لأقوى من شكسبير ، ولا تصنعوا رهوسنا بعد الآن بهذه المجموعة من الحكايات التي تسمونها التاريخ » •

وهذا القول يفيد أن برنارد شو لم يشأ أن يضع نفسه في أسر التاريخ ، إنما استخدم خياله ، وسخريته في سبيل خلق مسرحية جديدة يخرج بها إلى الناس •

أمير الشعراء الانجليزى

ونحب بعد هذا العرض السريع الموجز لبعض ماكتب عن كليوبترة في الآداب الأوروبية أن نخرج على مسرحيتين كبيرتين احدهما لا أمير الشعراء أحمد شوقي الذي احتفلنا بذكره ، وأخرى مسرحية أمير الشعراء الانجليزى جون درين (١٦٣١ - ١٧٠٠) وهو من الجيل الذي كان به شكسبير يملك ناصية الادب عن جلدرة •

وقبل أن نقارن بين هاتين المرحلتين ونتعرض لشخصية كليوبترة في كليهما نحب أن نقول : ان (شوقي) يتفق مع درين في وجوه كثيرة من الشبه ، فكلاهما يحمل لقب أمير الشعراء وكلاهما تربى في أكناف القصور ، واسترعت مواهب الشعرية الخديو توفيق ، فأوفده إلى أوروبا ، ثم اتصل بالأمير عباس وأصبح بين عشية وضحاها « شاعر العزيز » كما كان يقول •

وهكذا كان دريدن : انتحدر من أسرة عريقة ومدح وهجا من أجل الملكية ، وكتب إشعالوم واكتوفل التي تعد من أروع قصائد الهجاء في الادب الانجليزى ، ضد شافسبرى الذى اتهم بالحيانة العظمى ، وأنتج كثيرا من المسرحيات الرائعة « كفتح غرناطة » ، التى منح عليها لقب أمير الشعراء .

ولعل الشعارين يتفقان في كتابة مسرحية عن كليوبتره ، وقد أطلق شوقى على مسرحيته مصرع كليوبتره كما أطلق دريدن على مسرحيته « فى سبيل الحب » أو عالم حسن ضياعه . ويقول الناقد الانجليزى ستسبرى « ان دريدن بلغ الذروة فى هذه المسرحية ، أو كما قال كونجريف انى أجازف فأقول : انه لم يكتب أحد فى لغتنا الانجليزية فى كثرة دريدن وفى تنوع دريدن » .

وشخصية كليوبتره عند شوقى شخصية امرأة جميلة باهرة الجمال ساحرة الفتنة ، تجتلب الالباب اجتلابا ، وتجتذب القلوب اجتذابا . وأمام جمالها يقف دينون مدهوشا مذهولا :

يطأطأ راسا لمجد النبوغ ويخض رأسا لمجد الجمال

وكليوبتره كذلك عند دريدن فاتنة رائعة ، وقد وصفها دريدن وصفاً يستهوى القلوب وهى تنساب على الماء فى زورقها الجميل فى هدوء وسكينة والاماء حولها من كل جانب يمسكن المراوح ليجدن أمامها الهواء ، وضوء القمر ينسكب عليها فتبدو آية فى الروعة والفتنة ، حتى ان الشيوخ عندما يقفون أمامها يرجعون سحرها الى سن الشباب .

وكليوبتره عند شوقى امرأة معتدة بشخصيتها ، معتدة بجمالها ، وتصف أحبابها فتقول :

يموتون عشقا ثم يشقون بالهوى فكم من حياة فى يدى ومماته

وتحمل كليوبتره عند دريدن الشعور نفسه فهى تثق فى جمالها ، وتثق فى قدرتها على أسر الرجال . غير أنها فى بعض الأحيان تبدو ضعيفة كليله لا تستطيع أن تقاوم تيار الحب ولا تقف أمام الحوادث المتلاحقة المتعاقبة ، فيعترها السقام ويدب فى نفسها اليأس ، وتنهار نفسياتها وتنادى وصيفيتها ايراس وشارمبون حتى تسنداهما مخافة ان تسقط على الارض .

وكليوبتره عند أحمد شوقى ملكة مخلصه لمصر تعمل جاهدة فى سبيل اسعاد وطنها ودرء السلوان عنه ، ولكنها عند دريدن تنصاع لتياز الحب وتخضع لسلطانة ، فتضل معالم الوطنية بين أوهام المحبين

وهى عند شوقى تقول :

أموت كما حييت لمصرش مصر وأبذل دونه عرش الجمال

وتقول كذلك :

موقف يعجب العلا كنت فيه بنت مصر وكنت ملكة مصر

أما دريدن فلا تلمح عنده أثر هذا الاخلاص الذي يبدو في سلوكها ولعل ذلك يرجع الى أن (شوقي) رجل يحب أن يتيه بمجد آبائه الأولين ويعرض أمجادهم للعيان واضحة جلية ، أما دريدن فلم يكن في حاجة الى هذا كله إنما جعل الحب أساسا لموضوعه أو لمأساته وشاع الحب فيها منذ البداية حتى النهاية .

ودريدن يجعلها امرأة تدوس كل شيء من أجل الحب ، بل انه يرسم لنا صورة لها خلال كلمات اكتافيا في ثورتها على تلك التي اغتصب زوجها من بين احضانها واحضان أطفالها الصغار .

فاكتافيا تدنو من كليوبترة وتقول لها :

— أريد أن أراك عن كثب ، أريد أن أرى هذا الوجه الذي أخذ حتى منذ أمد طويل .. وأن أرى هذا السحر أمامي .. هذا السحر الذي لابد أن ينال الجنس البشري رشاش منه والذي حطم مولاى العزيز

فتجيب كليوبترة : أحسنت صنعا اذ تبحثين عنه ، فلو أنك ملككت نصف هذا السحر ما استطعت أن تفقدى قلبه .

اكتافيا — العلم بهذا السحر بعيد عن المرأة الرومانية ، بعيد عن الزوجة المتواضعة ، يالللخجل ألا يحمر وجهك خجلا وأنت تعترفين بهذه الكلمات الغزلية السوداء التي تجعل الخطيئة شيئا يدعو الى البهجة والسرور .

كليوبترة — قد تحمزين أنت خجلا ، أنت لاتملكين هذا السحر .. ولكن شكرا للسماء السخية التي حبتنى هذا السحر الذى بعث المسرة فى أنبل رجل .. فكيف أفخر بهذا ؟ أنا التي يحبني وعندما لا يحبني يبدل الله وجهي من وجه كهذا الى وجه كذا (اكتافيا) .

اكتافيا — أنت لاتحبينه حق الحب .

كليوبترة — أنا أحبه أشد منك واستحقه أكثر منك — أنت لاتحبينه ولا تستطيعين أن تحبينه فأنت سبب تحطيمه .

اكتافيا — من التي جعلته رخيصا فى روما غير كليوبترة ؟

من التي جعلته محتقرا فى الخارج غير كليوبترة ؟

من التي خانته فى اكتيوم غير كليوبترة ؟

من التي جعلت أطفاله أيتاما ، وجعلتنى أنا المسكيننة أرملة تمسه غير كليوبترة ، وغير كليوبترة فحسب ؟

الغيرة في العواطف

ولا نكاد نعرش في مسرحية أحمد شوقي على هذا العنصر ، عنصر الآثار بالغيرة ، فهو عنصر انفرد به دريدن في مسرحيته •

على أن (شوقي) اتفق مع دريدن في نهاية المأساة ، واستخدم الأفاعى لتنفيذ مؤامرة الموت ، وجعل كليوبترة تنال الأفاعى بعد أن تكشف عنها في إحدى السلال فتقول :

هلمى الآن منقذتى هلمى وأهلا بالخلاص وقد سعى لى
على نابيسك من زرق المنيا شفاء النفس من سود الليالى
وبعض السسم ترياق لبعض وقد يشفى العضال من العضال
أما عند دريدن فتقول لشارميون :

كليوبترة : أحضرى ياشرميون تاجى ومجوهراتى الثمينة ، وغار
النصر ، وأنت ياإيراس أحضرى الدواء من كل داء •
إيراس - الأفاعى •

كليوبترة - وهل أقول مرتين ؟ انها وسيلة جميلة الى الموت ، فاثير
غضبها حتى تلدغنى وأموت !

مسرحية موضوعها الحب

وهكذا اتفق الشاعران في هذا الواقع التاريخي ولم يحيدا عنه غير أن
الشيء البارز في مسرحية دريدن أن الحب موضوعها من أولها الى آخرها ، أما
مسرحية شوقي فقد استخدم فيها بعض العناصر التاريخية وتعرض لبعض
المعارك الحربية ، كممركة اكتيوم ، ولم ينس فى الوقت نفسه الدفاع عن
شخصيتها كمصرية ترغب فى الظفر والانتصار وتنادى انطونيوسبقولها:
« عد ظافرا أولاتعد » على النقيض من شخصيتها عند دريدن فهي تذوب وجدا
وترسل له من يخبره بأنها تريد أن تلقاه قبل الرحيل ، فهي لا تطيق فراقه
ولا تتحمل البعد عنه •

ولكننا ينبغي أن نفرق بين أسلوب هاتين المسرحيتين فنقول:ان(شوقي)
ألفها شعرا موزونا مقفى ، أما دريدن فقد ألفها شعرا حرا • • وغنى عن
البيان أن نظم المسرحيات بالشعر الموزون يحد المقفى من خيال المؤلف ويحد
من أفكاره مما جعله يستخدم الاسترسال الفنائى فى مواضع شتى من
مسرحيته •

وعلى أية حال فإن مسرحية شوقي تعد من روائع أدبه المسرحى ، ومهما
يوجه اليه من النقد فانه أول رائد وضع أسس الشعر التمثيلى الراقى ،
وترك لمن بعده مهمة بناء صرح عظيم البنيان ، نرجو أن يتمكن كتاب المسرح
فى العصر الحديث من تشبيبه بأقلامهم الفتية •

من القرن الرابع قبل الميلاد

أرسطو

لمع اسم أرسطوطاليس الفيلسوف الاغريقى القديم فى هذه الايام برغم تطاول الحقب وتباعد الأزمان بيننا وبينه ، وربما كان هذا راجعا الى تلك الترجمات الكثيرة التى أعيد نشرها حديثا ، ومنها تلك الترجمات التى قام بها استاذ الجيل الاستاذ أحمد لطفي السيد وبحلو لنا فى هذا البحث أن نستعرض رأى أرسطو فى الشعر والفن والجمال . وسيتبين لنا أن آراءه من أعمق وأصدق الآراء التى قيلت فى هذا المضمار ، فأتيج لها أن تعيش وتبقى على الأبد .

قسم أرسطو الشعر الى غناء وملاحم ومسرحيات ، فوضع بهذا التقسيم الأساس للنقد الأوربي الحديث . وكان يقصد بالشعر الغنائى ذلك الشعر الذى ينبع من النفس الى النفس ويخاطب القلب والأرواح ويثر الأحاسيس والمشاعر ، ومن أجل ذلك أعجب بقول الشاعر «موزى» الذى كان يعيش قبل أرسطو بأربعة أو خمسة قرون : «الفناء هو اللذة الحقيقية للحياة» واعتبر الفناء من أكثر الدعائم ضرورة للتربية فى المدينة الفاضلة لأن كل مايؤثر لذات بريئة وطاهرة يمكن أن يشارك فى غرض الحياة الاسمى ، أو يكون وسيلة للترفيه .

أما الملاحم فهى القصة الطويلة التى تصف أعمال أبطال عظام والتى كثيرا ماتصف المارك والحروب ، وتحدث عن النزال والطمأن والهزيمة والانتصار ، والغزو والفتح ، والاستيلاء ، وتكون لفتها فخمة رفيعة الأسلوب ، ومن وزن قوى متين .

وتشتمل أكثر الملاحم على حوادث خارجة عن المؤلف . وقد تشترك الآلة فى أحداث الملاحم كما فى الملمحتين الشهيرتين اللتين تنسبان الى هوميروس وأعنى بها مسرحيتي «الإلياذة» و «الأوديسة» وقد ظهرت فى العصر الحديث ملاحم أوربية شتى منها الكوميديا الإلهية لدانتى وأورلاند والغاضب لاريسستو والفردوس المفقود لجون ملتون .

أما المسرحية فقد اشترط فيها أرسطو التزام الوحدات الثلاث المشهورة وأعنى بها وحدة الزمان والمكان والموضوع ، وبمقتضى هذا الالتزام يجب أن تقع القطعة المسرحية فى يوم واحد ، وفى مكان واحد ، ولا تشتمل الا على موضوع واحد ، غير أن الفكاه من هذه الوحدات لم يلبث أن انطلق . وشرع الكتاب يتحررون منها ماوسعوا الى ذلك منبجلا دون أن يفضن هذا

من قيمة مسرحياتهم الفنية ، بل على العكس من ذلك كان هذا التحرر وسيلة من وسائل النضج والامتياز .

ولكننا اذا ما تتبعنا تاريخ المسرح وجدنا لقيفا من مشاهير الكتاب ومؤلفي التراجيديات مثل كوني وراسين ومؤلفي الكوميديا مثل موليير ظلوا يحرصون على تلك القواعد التي وضعها أرسطو قبلهم بالآلاف السنين .

ووضع أرسطو للتراجيديات علة غائية أطلق عليها « التطهير النفسي » ويقصد بذلك أن التراجيديات تطهر النفس البشرية من أدران الخوف وانفعالات الشفقة ، لأنها تثير مثل هذه المشاعر بين حوادثها فتداوينا بالتي كانت هي الداء على حد تعبير أبي نواس .

ويظهر أن أرسطو قصد في نظريته التطهير الى هذين الانفعاليين لأن التراجيديات الاغريقية كانت زاهرة بها ، مقتصرة عليهما . وكانت تدور في مجموعها حول الآلهة أو الملوك والأمراء وما يدور بين هذه القوى من انفعالات الخوف والشفقة .

وقد تطور فن المساة على مرور الايام واصبحت المسرحية لا تقتصر على هذين الانفعاليين بل تطهر النفس من شتى الانفعالات والمشاعر المكبوتة التي لا تجد متنفسا لانطلاقها ولا تلقى سييلا الى خروجها .

وكان أرسطو يرى أن الأدب يهدف في مجموعه الى التأثير في النفوس على نحو لاشعوري ، فلما تقدم الزمن ظهرت المذاهب الأدبية المختلفة التي زادت بالغنايات الارادية التي يهدف اليها الادب ، ويسعى الى تحقيقها ويعمل على نشرها .

أما في الفن فقد كان أرسطوطاليس يعتقد أن الفن نوعان : نوع يكمل الطبيعة كالطب ، فانه اذا اقتصرت الطبيعة في منح الصحة للجسد ، جاء الطبيب يساعد الطبيعة بفنه ، ونوع يسمى الفنون الجميلة كالنصب والموسيقى والشعر ، وهذا النوع عمله أن يقلد الطبيعة في كمالها ، فاذا صور انسانا فهو يصور الانسان كاملا ، وبعبارة أخرى يجب على المصور أن يرى الانسانية في الفرد .

وكان يعتقد أن التربية تتكون عادة من أربعة أجزاء متميزة ، هي الآداب والرياضة البدنية والموسيقى وأحيانا الرسم : فالأول والآخر باعتبار منفعتهما التي هي محققة كما هي متنوعة في الحياة كلها والثاني باعتبارهما صالحا لأن يورث الشجاعة . أما الموسيقى فإن الأولين لم يسلموا البتة بالموسيقى في التربية ، على أنها حاجة ، بل انهم كانوا ينظرون اليها عادة على أنها ملذة ليس غير ، ولم يقبلوها على أنها شيء نافع كالنحو الذي لاغنى عنه وهو من الأسس الرئيسية التي يدعوا أرسطو الى تعليمها في المدينة الفاضلة لاستخدامه في شئون التجارة والاقتصاد المنزلي ، ودراسة العلوم في طائفة من الأعمال السياسية ، ولا كالرسم الذي يعلم صلق الحكم على نتائج الفن ، ولا كالرياضة البدنية التي تؤتي الصحة والعافية ، بل لم يجدوا في الموسيقى الا شغلا كريما للفراغ واذا كانت هناك استراحة خلية بالرجل الحر فانها الموسيقى ، وفي ذلك يقول هوميروس :

« فلندع الى الوليمة شاديا ذا صوت شجي » أو حين يقول : على بعض آخرين من أبطاله الذين يدعون الشادي الذي يسحرهم جميعا صوته ، وفي مقام آخر يقول «أوليس» : ان أحلى اللذات عند الناس حين يستسلمون للسرور انما هي أن يستمعوا في المأدبة التي يصطفون فيها لأناشيد الشاعر .

ولكن نرسطو ينظر الى الموسيقى من وجهة نظر أخرى ، فهو يرى أنها وسيلة للوصول الى الفضيلة ، فهي تعود النفوس لفة شريفة طاهرة ، لما ان الرياضة البدنية بعيدة الاثر في الأجسام ، وهي بمعاونها على ترويح النفس تساعد على تكميلها ، وهي استمتاع حق ، وبما أن الفضيلة تنحصر على التحقيق في أن يحسن المرء الاستمتاع والحب والبغض كما يأمر به العقل فينتج من ذلك أنه لاشئ احق بدراستنا وعنايتنا مثل ملكة الحكم الصحيح على الأشياء ، وان نضع لذتنا في الاحساسات الشريفة والافعال الفاضلة وانه لاشئ أقوى من الايقاع وأغاني الموسيقى لحكاية الغضب والطيبة والشجاعة ، بل الحكمة ذاتها وجميع احساسات النفس حكايات حقيقية بقدر الامكان كما تحكي أيضا جميع الاحساسات المقابلة لتلك ، واذا كانت الحوادث الواقعية تكفي أن تثبت ، كيف يغير حالات النفس مجرد حكاية الأشياء التي من هذا القبيل سواء بالفرح أم الحزن ، فما ذلك بالموسيقى ؟ فمتى تغيرت طبيعة الانحان تغيرت معها انفعالات المستمعين تبعا لكل واحد منها . فباللحن الشجي كلحن المذهب المسحي « ميكسوليدي » تحزن له النفس وتنقبض ، والحان أخرى ترقق القلب ، وتلك هي الاقل في مراتب التفضيل ، وبين هذين الطرفين لحن آخر يواتي النفس على الخصوص سكونا تاما وهو المذهب الدوري الذي هو وحده يؤثر هذا الاثر فيما يظهر . أما المذهب الفريجي فهو ينقل النفس الى التمسح .

ودافع ارسطو عن الموسيقيين دفاعا مجيدا ودحض القول القائل بأن الموسيقى تسقط بالرجل ، وقال : ان دراسة الموسيقى يجب ألا تضير مقام المهنة التي سيمتحنها أولئك الذين يتعلمونها ، وانه لايجوز مطلقا أن نقول انها تضعف الجسم فتحصله غير قادر على مشقات الحرب أو القيام بالشئون السياسية .

واستنكر ارسطو استخدام بعض الآلات الموسيقية في التربية ومنها المزمار والآلات التي ليست الا لاستعمال الفنانين كالتقيثارة وما يقاربها ، وقال : ان «المزمار» ليس آلة موافقة للأدب ، ولا يصلح الا لاثارة الشهوات ، ويجب أن يقصر استعماله على الظروف التي فيها يقصد الى الترويح لا الى التعليم ، كما ذكر أن للمزمار ضرا آخر وهو أنه يمنع الكلام في أثناء تعلمه وقد أخطأ الاقدمون في وضع أهمية كبيرة لهذا المزمار اذ رآه في «هقدونيا» مواطن يضبط نغمة الموسيقى على نغم المزمار الذي يزمر به هو نفسه وصار هذا الذوق قواميا في أثينا حتى لم يبق فيها رجل حر لم يتعلم هذا الفن ، غير أن التجربة مالبشت أن رفضت المزمار حينما قدر : ماذا يمكن أن يساعد على التربية أو يضرب بها من أمر الموسيقى ، كذلك أبطلت معه آلات قديمة مثل البريتول والبيكتن ، وهناك أسطورة قديمة تحدثنا أن منيرغا

التي اخترعت المزمار ما لبثت أن تركته ، وتزعم نكتة فكهة أيضا أن غضب الآلهة على هذه الآلة جاء من انها تشموه الجسم .

ولست أدري السر الحقيقي الذي يكمن وراء استنكاف أرسطو لاستخدام المزمار ويصعب علينا أن نفهم قصده من هذا على ضوء العلم الحديث .

ولكن هذا كله لا ينقص من قيمة آراء أرسطو طالع في الموسيقى .

أما الرسم فقد كان يعتقد أنه تقليد للطبيعة بيد أن هذا المذهب لم يلبث أن تهاوى أمام المدارس الحديثة في الرسم كالمدرسة السريالية ونحوها ، وكان يعتقد أن المرء يتعلم الرسم حتى يتجنب الخطأ والسهر في شراء الأثاث والآنية وفي بيعها .

وربما لم يكن أرسطو موقفا في رأيه في الرسم كتوفيقة في رأيه في الموسيقى ، غير أنه لم يفتح الباب أمام الناس جميعا لتعلم الفنون بخيرها وشرها في مدينته الفاضلة ، إنما قصر القول على استخدام آلات معينة في الموسيقى ، وأساليب خاصة في الرسم ، وذكر أنه يجب على المشرع أن يقسو في أن ينفي عن مدينته فحش القول كما ينفي منها كل رذيلة أخرى فإن الإنسان متى سمح لنفسه بقول الفواحش أو شك أن يسمح لها أن يأتيها وبها أننا ننهي عن الأقوال الفاحشة فلننه كذلك عن التمثيل والصنوبر المنافية للأدات ولينع الحاكم بأن يجنب الأطفال النظر إلى أن أي تمثال أو رسم يثير مبادئ من هذا القبيل إلا أن يكون ذلك في معابد أولئك الآلهة التي يجيز فيها القانون نفسه الفحش ، وغير أن القانون يأمر ألا يدعو امرؤ في سن أكبر أولئك الآلهة لنفسه أو لزوج أو لأولاده .

ويرى أرسطو انه يجب أن يحرم القانون على الشبان شهود القطع التمثيلية البذيئة والمضحكة إلى السن التي فيها يستطيعون أن يتبوهوا قواعدهم في الموائد العامة . وعندئذ تكون التربية قد حفظتهم من أخطار تلك الاجتماعات .

وقد أحب الاغريق الجمال منذ قديم الزمان فقال بركليس : « نحن قوم نحب الجمال بشكله الطبيعي البسيط » ويقول كليومينيس : « خلقنا لتعبد الجمال ، وخلق الجمال لتعبد » ويقول المؤرخ بلوطارخس : « ان الجمال يجذبنا إليه بقوة تحتل فينا همه ناهضة ليست هي غريزة التقليد بل هي الفطنة يثرها ما تحدثه فينا مشاهدة الجمال من أثر ينظمها إلى العمل » ويقول المؤرخ ثوكينريس : « نحن نحب الجمال بمقدار ونفلسف من غير حيلة » .

ولذلك وجدنا تماثيلهم تفيض بالسحر والجمال ، وكانت فينوس الهة الاغريق رمزا ناطقا بالجمال ، والسحر الشهى الحلال .

وانتقل الاغريق من عبادة الجمال الطبيعي الذي يكمن في الطبيعة إلى الشياحة الباهرة ، وابتدع آلهة لكل مظهر طبيعي إلى تقديس الجمال في الجسم الكامل . فاعتنوا بالالعاب الرياضية والحفلات الأولمبية . ومضى أرسطو ينادي بضرورة الألعاب في التربية الفاضلة فالشغل مجلبة للنصب ،

وحصر للملكات ، فيلزم حينئذ الانصراف في الوقت اللائق الى استخدام الألعاب باعتبارها دواء ناجعا وأن الحركة التي يؤتيها اللعب تبسط العقل وتريحها بما تؤتيه من اللذة .

وكان سقراط يجعل الجمال شرطا للفضيلة ، كما جعله أفلاطون في جمهوريته بين أوصاف الفلاسفة الحاكمين عقلا مطبوعا على الجمال والانسجام فيمن تسمح له غرائزه أن يدرك صور الأشياء على ماهي عليه في ذاتها .

أما أرسطوطاليس فكان يرى في الجمال المحاكاة الصادقة ، ولم يقتنع برأى أفلاطون القائل بأن الجمال ليس هو الحقيقة وأن اشعار هوميروس لا تصلح مثلا دليلا على الزمان والمكان وإن كانت آية من آيات الجمال . ولما رأى الناس يسرفون في بيان مدى محاكاة الفنانين للطبيعة قال انهم لا يحاكون أشياء خاصة ، إنما يحاكون أشياء عامة ، ثم فصل صفة الجمال العامة بأنها تعتمد على كم معين ونسق معين .

هذه بعض آراء أرسطوفى الشعر والفن والجمال كما وضحاها في كتاب السياسة والخطابة والشعر وكتاب الأخلاق الى نيقوماطوس وهو ابنه ، ومنها يتضح لنا قوة تلك الأشعة الفكرية التي نبعت من فكره وتغلغلت عبر السنين وهتكت حجب ظلمات القرون .

الفونس دودير

بين أحضان المروج الخضراء حيث الحضرة النضرة تمتد امتداد البصر ،
وتنحنى قامات الزرع وهامات أشجار الحزامي في يد النسيم الحنون ..
وحيث الشمس اللطيفة الجميلة .. وحيث ينتثر الفيلار .. فيملا الجو ..
في بعض الأحيان .. خرج « الفونس دوديه » الكاتب الفرنسي الى الوجود .

وقد أخرجت الكاتبة المعاصرة « مس فيرادويه » كتابا عن هذا الكاتب
« الصغرى درست فيه طفولته ونشأته وحيه وزواجه وانتاجه الأدبي منذ أيام
معدودات فحق لهذا الكتاب أن يكون كتلب الموسم » .

نشأ الفونس في أحضان الريف وخرج الى الوجود عام ١٨٤٠ وكان
قد مضى على زواج أبيه عشر سنوات . ويزعم بعض الرواة أن « الفونس »
خرج الى الحياة وأبواه في ضنك شديد ، ولكن « الفونس » يقول عن نفسه في
كتابه « الكائن الصغير » : ان أبويه لم يكونا في ضيق وعسر في هاتيك الأيام
وكان « الفونس » يحب أمه حبا جما وكانت أمه تحب الكتب والاطلاع الى أبعد
حد فكان يجلس اليها الفونس بين الحين والحين يقص عليها روايات القصص
وأجمل الحكايات فبثت في الطفل الصغير حب الأدب والقراءة وكان يصحبها
الى الكنيسة ، ففرست في نفسه حب الدين والتقى وأحب أجراس الكنيسة
وهي تقرر الأذان برتبتها في الفضاء .

وظل الفتى يتعلم في مدارس ليون ، ثم تآقت نفسه الى الحياة في
باريس واستهوته أضواؤها وبهره صيتها وحلم بالشهرة بين أرحائها
وهتف بأخوته (هيا فلنذهب الى باريس) .

وذات يوم أزعج مع أخيه (إيرنست) الرحيل الى باريس ، وفي الساعة
الثالثة صباحا وصل « الفونس » الى المدينة الحالمة حفائذه الريفية الكبير وهيئته
« الرثة » فلم يكن الفونس يملك في ذلك الوقت حذاء مدنيا رقيقا . وكان
قد أنفق ماله من النقود اللهم الى ملبأ ضئيل يحتفظ به في جيب سترته .

ودخل الفونس باريس وهو يتأبط ذراع أخيه أرنست على حين كانت
باريس تطف في نومها تحت سحب السماء الرمادية . وعبرا الجسر الذي
يؤدي الى الضفة اليسرى حيث كان باعة الصحف واللبن يسعون في الأرض
وعرج الفونس على الحى اللاتيني حيث قطن في حجرة صغيرة هناك ينهل
من آداب فرنسا الخالدة ، وكان يختلف بين الحين والحين الى مسرح الأوديون
حيث عرف الكاتب الفرنسي فلوير ووطد صداقته مع كثير من الكتّاب
« الفرنسيين » .

وتعلم الكاتب لأول مرة أن يلبس السترة الطويلة الذيل وأن يلج صالونات الطبقة الراقية وأن يكتب في الصحف السيارة مثل جريدة (سيكتاتور) . وفي مساء ١٤ من يناير عام ١٨٥٨ انتشرت الأخبار في أرجاء المدينة كالنار في الهشيم بأن هنالك مؤامرة قد دبرت لقتل الامبراطور والامبراطورة اذ القى أربعة من الايطاليين قنابل على العربة الامبراطورية في أثناء ذهابها الى اوربا وقبض على أحد المؤمرين ولا يزال البحث جاريا على الآخرين الذين تاهوا في زحمة المتفرجين .

وقد خرجت جريدة (سيكتاتور) على الناس بمقال شديد اللهجة تنتهك فيه على الامبراطور وتقول : ان مثل هذه الحوادث لاتحدث الا في عهد الحكومات الظالمة فأغلقت الجريدة وضاع مورد كبير من موارد الشهرة والمال للكاتب الفرنسي الفونس دوديه . ولكنه أخذ يكتب في صحف أخرى ويحضر اجتماعات الطبقة الراقية فأسر الرجال والنساء بجماله الرقيق وصوته الممتلئ العميق ووجهه الأسمر الذي لفحته شمس الجنوب .

وعاش الفونس في بوهيميا فترة طويلة من الزمن ولكن حياة بوهيميا الصاخبة اللاغية وكنوس الحمر وأقداح النبيذ لم تؤثر فيه لطبيعة نفسه على حد تعبير أخيه ايرنست وأخذ الفونس يضرب في ميدان الصحافة والشعر حتى بزغ نجمه وعلا اسمه ، ثم عمل في قصر (البوربون) وعندما بلغ أعتاب قصر البوربون كتب اخوه أرنست يقول : (ان الفونس ذو طبيعة حالمة ومزاج رقيق أكثر مني . وهو شاعر ساحر والطبيعة تفعل فيه سحرها حتى اليوم الذي يستوفي فيه أنفاسه . وهو وسيم جذاب وعبقري . فماذا ينقصه ليكفل له النجاح ؟ غير أن روحه الحالمة تسيطر عليه . وهذه هي خصلة العبقرة . ان العبقرة حمل ثقيل . وهناك أزهار تحتاج الى مناخ خاص وان الفونس من هاته الأزاهر .

لم تكن والدته الفونس ولم يكن أخوه يحبذان هذا العمل له ويريان أنه غير مخلوق لهذا النوع من الأعمال . وصديق تكهنهما بعد ذلك اذ طلب الفونس بعد فترة وجيزة من الدوق (دى مورنيه) أجازة للراحة والسياسة فترك الشاب باريس في نوفمبر عام ١٨٦١ في ليلة ممطرة وودع أصدقاءه قبل سفره وأخذ يقول : انني نمت قد تجمد نصفه غير أن الشمس الدافئة في الجنوب سوف تحيييني . وفي تلك البقاع كان نفر من أصدقائه ودوى قريبا ينتظرون الكاتب الساحر الا أنه لم يمكث في القرية طويلا وأزمع الرحيل الى بلاد المغرب وكورسيكا حيث متع بصره وغنى قريحته بمشاهداته وتأملاته في تلك البلاد .

وفي مستهل عام ١٨٦٤ رجع الفونس دوديه الى باريس حيث أخرج بعض قصصه ومسرحياته ومن أروع القصص التي ديجتها يراعه قصة سافو Sapho والخالد L'immortel و Jack ونوما ورومستان Numa Roumestan والثرى Le Nobab والملوك في المنفى les roisen exil وغيرها من القصص والمسرحيات .

وفي هذه الفترة خلق قلب الفونس دوديه للحب ومسح الهوى قلبه بمصاه السحرية ، فاذا بهذا الكاتب الساحر يهيم شوقا ويفيض حبا ففي

أثناء عرض إحدى مسرحياته على المسرح الفرنسي كان ألفونس يلبس حزاماً ذهبياً فوق حلة أنيقة وكانت غادة حسناء تجلس في إحدى المقاصير مع أبيها وأما تدعى جوليا ألرت • كانت جميلة كزهرة الربيع مشرقة كفلق الصباح تتدفق بالحياة والنشاط • وترنو إلى المسرح بعينها التي جمعت أشباح الأفتنة فيها ضلال العقول وهدي الجنون ! وقد سألت الفتاة أحد عمال المسرح عن ذلك الشخص الذي يشد وسطه بحزام ذهبي فأجابها بأنه ألفونس الكاتب الذائع الصيت • فخرجت (جوليا) عقب الحفل وفي قلبها صورة ألفونس وفي عينها خيال من مسرحيته التي هزت أفتنة الحاضرين •

وبعد شهر قليلة ذهبت جوليا مع والديها إلى بيت دوديه في قرية أخرى وكانت جوليا ترتدي ثوباً أبيض كنور الصباح وتتغنى بأبيات عذبة من الشعر تلقياها أمام ألفونس في صوت حلو طروب •

وما جن المساء حتى اختلج ألفونس بأخيه أنسبت وأخبره بأنه صريع الهوى وأسير القرام وأنه قد أحب مدموازيل جوليا ألرت ويطمئع في أن يتخذها عروسه • وكانت جوليا فتاة صبية صغيرة تحب الشعر والكتب وتمثل التواضع والسحر والأتوفة • وكان ألفونس يكره النساء المتحذلقات ذوات المواهب ، ولكنه اليوم أصبح أمام فتاة من طراز جديد ربيت في بيت من العلم وتقاليده القرن التاسع عشر ، وكانت إلى جانب حبها للعلم تجيد الحياكة وتؤثر قضاء الأصائل في الشتاء في حدائق الفويلري • وكانت جوليا من الشمال • وكان ألفونس من الجنوب • فجنب ذلك الاختلاف نفس ألفونس ووجدتها مكسلة له • ووجد فيها الهدوء والاتزان والفضيلة التي يكن أن تسيطر على نفسه وأن تطرد هوائه وأن تسوقه من نصر إلى نصر، فصمم على أن يتزوجها •

ولعل أصدق ما كتبه عن الزواج ما كتبه في (زوجات الفنانين) : أن الزواج بالنسبة إلى مرفأ ذو مياه هادئة وليس بمرفأ تربط فيه نفسك يوناتق إلى الأبد ولكنك تستقي منه إلى الإقلاع مرة ثانية) •

وفي مستهل عام ١٨٦٧ زفت جوليا ألرت إلى ألفونس دوديه ورحل ألفونس مع عروسه إلى إقليم البروفانس حيث رأت طواحين الهواء وجاسا هنا بين المروج ثم عادا إلى باريس •

ولكن الحب بين العروسين أصيب بصلمة قوية • إذ تغيرت أخلاق ألفونس في هذه الفترة وأنفق كثيراً من ماله في اللعب واللهو وفي اللقاءات والملاهي والمنتديات • وكان يرجع إلى عروسه في الهزيع الأخير من الليل حمورا فاقد الوعي يتطوح بينة ويسرة ، ممزق الثياب أشعث الشعر دامي الوجه • وكانت زوجته تقف إزاء هذا كله قوية الأعصاب ضابطة النفس وتستقبل ذلك كله بصبر رحب حتى أقتنعت بضرورة احترام حرية البيت وسكنت في نفسه نغم الحب • وكانت مائدته دائماً معدة وثوبه نظيفاً وطعامه جاهزاً كما يقول في مذكراته •

كان لألفونس هويته يعيش في طاحونة من طواحين الهواء • وقد كتب

رسائل من هناك استهلها بقوله : أجل ياسيدي .. رسائل من طاحونتي .. غير أن الذي يكتب هذه الرسائل ليس طحانا .. ولو كان كذلك لآثر يياض الدقيق على سواد اللداد . فلست طحانا وإنما أنا صحفي يسير . صاحب طاحونة . وقد تظن أن هذا شيء عظيم بالنسبة الى صحفي مثل ولكن لتهدأ بالا . فما هي الا طاحونة عتيقة مهجورة مفقودة في اقليم البروفانس . . وما أجمل المقام في طاحونتي وما حاجتي الى البشر وأنا أكتفي بمنظر أقول الشمس وراء أشجار الصنوبر وأطياف النور على الصخور وبصوت ريح الشمال الرضية وهي تداعب هامات الأفنان .

وكا ألفونس دوديه يجلس في حصى هذه الطاحونة مع أصحابه يستمتع بأجمل القصص وأشجى الأحاديث . وكان صاحبه فرانس العجوز يلعب على الأرغن فيهن أوتار القلوب حتى اذا ما انتهى من ترفيه قصص عليه قصة السيد (كورني) صاحب طاحونة الهواء الذي عيس في وجهه الزمن ودهمته الأحداث . فجعلت أصحاب طواحين الكهرباء يستبدون بالأمر استبدادا . وينهب البهم جميع الأهالي لطحن الدقيق أفواجا ولكن السيد كورني أثر الا يجعل الشماعة تسرى في قلوب الناس من أجله ، فأحضر أفواجا من الحمير وجعلها تدخل الطاحونة متعاقبة ، وهي تحمل أكياس القمح وجوالات الدقيق، حتى يخبرع الناس ويوهمهم أنهم لا يزالون يلجئون الى طاحونة الهواء .

ولم يلبث أن كشف أمره فوضع رأسه بين يديه وانكفا يبكي في لوعة تفتت الأكباد وتقطع نياط القلوب .

وهكذا عاش ألفونس دوديه فترة طويلة من عمره في حصى هذه الطاحونة يكتب رسائله ومؤلفاته . فاسترعت مؤلفاته أنظار فرنسا بوجه خاص وأنظار أوروبا بوجه عام . وقد صور ألفونس في بعض قصصه الصراع القوى الجبار الذي نشأ بين أصحاب طواحين الهواء وأصحاب طواحين الكهرباء .

وأصيب الشاعر في أواخر حياته بمرض الروماتيزم الذي عاقه عن الحركة والسير . . وأخذ يزحف الى عينيه ولم يلبث أن أدركه في قلبه وهنا حم القضاء ورفرف الموت فوق رأسه بأجنحته السوداء .

وذات صباح استيقظ الناس في فرنسا . . ونبا موته يملأ كل مكان والعبرات تلمح في العيون . . والكآبة . . تلوح على الوجوه ، والحسرة تتصاعد من الصدور .

من القرن التاسع عشر الميلادي

تشارلز ديكنز

يعد تشارلز ديكنز من أشهر كتاب القصة في الأدب الانجليزي ، فقد ألف بضسع قصص مشهورة مثل دافيسا كوبر فيلد وقصة مدينتين واليفر توست وبكويك التي تصور لنا انجلترا القديمة ذات الفنادق والعربات تصويرا دقيقا وغير ذلك من القصص المشهورة والمغمورة التي جعلته زعيم القصة في القرن التاسع عشر .

وكان عشاق الأدب الانجليزي يرون في ديكنز رجلا فاضلا قديساحتي كتبت ابنته «كيكي» مقالا عن أبيها جاء فيه : «لقد أحببت والدي ٠٠ أكثر مما أحببت أى رجل في العالم ٠٠ لقد كان رجلا شريفا ٠٠ شريفا جدا ٠٠ غير أني أحبه ٠٠»

هذه الكلمات التي انبثت بها صوت كيكي ابنته عن أبيها ٠٠ وهي في التاسعة والثمانين من عمرها وتلقى بصرها عبر الماضي لتجمع من الاحداث مواكب الذكريات وقد جعلت وجهها أمارات الشيخوخة ٠٠ وخنت ظهرها خطوط السنين .

استمع الى كيكي وهي تقول عن أبيها : قد تكون فضيحة أن اتحدث عن ديكنز وهجرته لزوجها واندفاعه في طريق الفواية ومصاحبة الشيطان وتتيمة بحب ألين نردان التي تدله بحبها أعواما طويلا وتزوجها وحملت منه ابنا مات وهو فى نضارة الصبا وزهرة العمر ٠٠ لقد حدث أني كنت أنقب مع مستر روبرتس وهو أحد الناشرين المهتمين بروايات شارلز ديكنز «مكتب تشارلز ديكنز» فعثرنا على مذكرات تلقى أضواء على حياته الخاصة وقصة حبه وغرامه .

فى إحدى مدائن انجلترا الصغيرة عرف ديكنز الكاتب الكبير عائلة هوجارت حيث عاش هادئا ناعما فى كنفها وعكف على كتابه المشهور (بكويك) وكان مستر هوجارت فى ذلك الوقت قد تعدى الخمسين من عمره كان رجلا هادئا وقورا وكان رجلا أديبا فنانا له حظ فى الأدب والموسيقى ، وكان لمستر هوجارت ثلاث بنات أثرن تأثيرا كبيرا فى حياة ديكنز وهن كاترين ومارى وجورجينا . ولقد كانت كاترين فى العشرين من عمرها أما مارى فكانت فى السادسة عشرة أما جورجينا فكانت لاتزال طفلة صغيرة .

وكانت الفتيات الثلاث بمثابة نسيم عطرى يعطر حياته ويملا صدره فنبعث فيه النشوة وتتسرب الى قلبه السعادة ٠٠ تلك السعادة التي فقدناها فى حبه الأول مع ماريا .

كان ديكنز ينظر حواليه فاذا بفتيات في عمر الزهور يحطنه من كل جانب ويملآن فراغ حياته ويشعرنه بالحنان المفقود... والراحة الضائعة... فهذه تنثر عليه ابتساماتها كاللآلئ... وتلك ترنو اليه بنظرة قد جمعت كل آيات الولاء... وتتقدم اليه لتستمتع بخيالاته الرقيقة وأحلامه الحلوة فيردد في أذنها بعض أشعار شكسبير أو ملتن .

ولكن ماذا ؟ ماله يستيقظ من نومه أرقا قلعا .. ماله يرنو الى كاترين فيحس في تقابل نظراتهما شيئا أقوى من النظرة وأحد من البصر .. وهو أشبه شيء بالعناق ؟ مالم يقف ساهم الفكر مقلب النظرات حائر اللب .. معقود الكلمات كلما دنت منه .. أو لاحت أمامه .. أو خطرت عابرة من حجرة الى حجرة ؟

ترى هل حضر الى هذا المكان .. لينبثق في قلبه حب ولید .. ترى هل حضر الى هذه البقعة .. ليندفع من فؤاده .. حب قوى جارف .. لا تقيدته الحدود ولا السدود .. لقد كان ديكنز مترع الشباب تتدفق منه الحيوية ويسيل منه النشاط ويتوقد قلبه حساسية وشعورا فانقلب في غمضة عين محبا مستهما .

كان الليل يهبط على ديكنز وهو لا يزال يقظا في غرفته عاكفا على كتبه وأوراقه فتأتى كاترين مشفقة عليه من السهر وتشاركه في ألمه وتجاذبه أطراف الحديث .

ونحن لانتطيع أن نصور كاترين أسمى وأصدق من التصوير الذي وضعته لنا مسز كريستان في احلى رسائلها : كانت كاترين فتاة لطيفة .. وادعة ذات أهداب جميلة وطويلة .. وعيون ساحرة زرقاء تسلب أفئدة الرجال .. أما الأنف فدقيق والجبهة جميلة .. والفم صغير والشفاه لمياء حمراء .. تتراعى عليها ابتسامة جميلة معبرة وتنساب من عينيها نظرات وسنانة حاملة .. غير أن ناحية الغيب في وجهها أن ذقتها كانت تنحني سريعا فوق عنقها .

كانت تقف أمام المرأة تنضج بالعطر فكانت تراود ذهن ديكنز في هذه اللحظة أفكار وخيالات .. ايه أيها العطر ! .. لقد خرجت من أزهار عبقرة جميلة مائسة وستعلم حين تسبكك كاترين على جسمها الفاتن أنك رجعت الى أجمل من أزهارك وأحلى من شذاك وأناك كالقدسين .. تركوا الدنيا ولكنهم ظفروا بنعيم الجنة ! ..

وكان تشارلز ديكنز يرسل الى صاحبتة كاترين قصاصات من الورق يكتب فيها هذه الكلمات (حياتي العزيزة .. أرسل اليك قبساتي الحارة ولثماتي الثائرة) .

وكان ديكنز يسأل كاترين بعد تلاوة هذه القصاصات أن تنبئه برباها فيه ، فكانت تجيب عن سؤاله بابتسامة معبرة .. وقد انتهى بهما الوله والحب الى عقد قرانهما في ٢ من أبريل عام ١٨٣٦ .

ولقد عاشت ماري أخت كاترين مع أسرة ديكنز مدة طويلة . غير أن القدر لم يشأ أن تدوم هذه الصحة طويلا ، فقد حدث أن ذهب الثلاثة ديكنز وكاترين وماري إلى أحد المسارح فأصيبت ماري منذ هذه الليلة بمرض خطير لم يمهلها سوى ساعات قلائل ، فطارت نفس ديكنز شعاعا من أجلها وقد أثر هذا الحادث في نفس ديكنز تأثيرا بالغا وكتب يقول : وبعد أن ماتت كان خيالها يراودني في كل ليلة لشهور متعددة ولا عجب في هذا فقد كان ديكنز رفيق الشعور مرهف الحس تراوده الأفكار وتلاثمه الأشباح وتؤثر في حياته الصور وتتراس في كتاباته كما فعل في أوليفر تومست أو دافيد كوبرفيلد ، ومأساة ماري أشبه بمأساة نللي الصغيرة في إحدى رواياته .

ولكن حياة ديكنز لم تمض هادئة واحدة كما كان يظن ، بل عصفت بها الأحداث واجتاحها الحطوب وثار في جوانبها الأعاصير وانقلب ذلك المحب الواله في حب كاترين شخصا باردا ثقيلًا . . . وانقلب الوجه المشوق شيئا تافها بسيطا لا يأبه له ديكنز ولا يعيره التفاتا . . . وإزاء هذا الفتور والنفور هجر ديكنز كاترين .

حقا لقد كانت تحاول دائما أن تثبره . . . وكان يحضر إلى منزله فيجدها غارقة في لعب النرد مع أحد أقاربها فلا تحفل بوجوده ولا تعبأ بحضوره غير أنها كانت في أغلب الظن تفعل ذلك لاثارة حبه وكان هو مشغولا عنها بحب الين نرنان .

ومهما يكن من شيء فقد دببت القطيعة بين ديكنز وكاترين فهجرها وعندما كانت كاترين تمرض كان يبعث إليها من بيته برسالة لا تدل على أنها رسالة زوج إلى زوجته . . . إنما تدل على أنها رسالة رجل ثائر . . . حائر . . . عصفت به الاقطار واجتاحته رأسه الهواجس والظنون .

لقد عرف ديكنز في الأيام الأولى من زواجه أنه رجل أساء الاختيار فلم تفهمه زوجته ولم يفهم زوجته ولم يكن أهلا لها ولم تكن أهلا له وإن كان لها منه عشرة أبناء . . . فكتب يقول : (إني أنا وكاترين ليس أحدا أهلا للآخر . . . وليست هي التي تجعل حياتي ضيقة عسيرة بائسة إنما أنا أيضا . . . فهي كما تعلم محبوبية لطيفة ولكن وأسفاه ليست الرابطة بيننا وثيقة ولا العاطفة وشيخة ! وربما تكون كاترين أكثر سعادة لو أنها تزوجت رجلا آخر ، فإن الفراق بيننا لابد أن يكون ليسعد كل منا . . . قلبي يتقطع أربا أربا . . . ونفسي تطير شعاعا عليها ، إذ أعلم كم هي حزينة عندما تعلم أنني غليل . . . أو عكز المزاج ، ولكن ما الحيلة . . . والعوائق جمة ، وليست هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن تجعلها تفهمني أو تجعل مزاجها يساير مزاجي ؟

وهكذا عصفت الأقدار بحب كاترين وديكنز وبمس الثرى بينهما ودببت القطيعة والجفاء بين روحيهما . . . وقد يظن ظان أنها لم تكن تملك الأسلحة الكافية لاستهواء ديكنز غير أن من يقسرا رأى ديكنز الأول وخطاباته إليها وتشببه بها يضرب بهذا القول عرض الحائط .

والواقع أن ديكنز كان من اللون المتقلب . . . كان من الكتاب الذين

يجدون اللذة فى التغيير ٠٠ والذين يؤثرون الثورة والانقلاب فى ذروة
المجد ٠٠٠ لمجرد خاطر طاف بأذهانهم أو فكرة أملت بعقولهم ٠٠٠٠

كان ديكنز من الكتاب المفرطين فى الشعور المسرفين فى الإدراك ومثل
ذلك كان كتاب تولستوى الذى كانت زوجته تحيا بلا خدم ولكنه دفعها
الى أن تسامر عشرة أو اثنى عشر من أصدقائه تحت سقف واحد ٠٠٠

ولما مات ديكنز عام ١٨٧٠ طار نبأ موته فى الآفاق ٠٠٠ وروعت بموته
انجلترا وأمريكا ٠٠٠ وكندا وأستراليا ٠٠٠ وغيرها من بلاد العالم ٠٠٠
فقد عرفه كل الناس حتى الصغار ، غير أن طفلا صغيرا على حد تعبير الكاتب
الفرنسى المعروف أندريه مورا رابه شغل الناس فى هذا اليوم ٠٠
وتزاحمهم واجتماعهم فتنسامل قائلا ٠٠ هل مات مستر ديكنز حقا ٠ أو
يحتفل الناس الليلة بعيد الكريسماس ٠

هنريك ابسن

رائد المسرح الحر

قدمت بعض الفرق المسرحية تحفيتين رائعتين من مسرحيات ابسن =
احدهما بعنوان لعبة البيت ، والاخرى بعنوان «الأشباح» .

والواقع أن هنريك ابسن يعد علما خفيا من اعلام الدراما في العصر الحديث وقد ولد عام ١٨٢٨ بالقرب من مدينة «سكين» في بلاد النرويج .
وامتاز عن اخوته جميعا منذ نعومة أظفاره بدقة حسه ورقة مشاعره وولعه
بالشعر وعكوفه على الانتهاز من مناهل الأدب في كتب العباقرة الأولين .

اهتم هنريك ابسن في مطلع حياته بنظم الشعر وكتابة المسرحيات .
الشعرية ، ولكنه لم يلبث أن هجر الشعر الى النثر ووجد فيه الحرية في .
التعبير والانطلاق في التفكير . ومعالجة المشكلات الاجتماعية في صورة أوضح .
وسيلة أسطع . ويمكن أن تقسم مسرحيات ابسن ثلاثة أقسام :

القسم الاول هو تلك المسرحيات التي تفرق في جوها الديني والتي .
كتبت على غرار مسرحيات الاغريق مثل مسرحيات براند ويوجيت .

والقسم الثاني من مسرحيات ابسن هو نقطة التحول من الشعر الى
النثر وتنزع مسرحيات هذا القسم نزعة اجتماعية واضحة . وهكذا ركز ابسن .
اهتمامه نحو المجتمع بعد أن كان يركزه نحو الدين . ويمكن أن نعلم مسرحيات
«الأشباح» Ghosts التي قدمها المسرح القومي وبيت البمية أو لعبة
البيت Doll's House التي قدمتها فرقة الطليعة وأعمدة المجتمع من بين .
مسرحيات هذا القسم .

والقسم الثالث من مسرحيات ابسن يعالج المشكلات النفسية ونزعات .
الفرد واهوائه وعلاقاته بالمجتمع وبالمثل العليا ويجعل الطبيعة البشرية
ميدانه الذي يصول فيه ويجول ، ويمكن أن نعتبر مسرحيته .
«البطة الشموص» .

ر «العمود العظيم»

من بين مسرحيات هذا القسم .

وتظهر قيمة مسرحيات ابسن في زعامته للمذهب الفردي أو المذهب .
الحر ، وينادي أصحاب هذا المذهب بضرورة إطلاق حرية الفرد ليعمل وفق
حقوقه الأساسية المستمدة من طبيعته الانسانية ، ففي العالم قانون صحيح .
مطابق للطبيعة ثابت أبدي يتولى الله تأييده ويعاقب من يخالفه، ولذلك يجب .

على الأفراد أن يخضعوا لأحكامه ومن يتنكر له فقد تنكر لطبيعته ومن نفر منه فقد نفر من إنسانيته .

وهذا القانون الطبيعي على حد تعبير الفيلسوف الروماني شيشرون هو أساس المبادئ الخلقية والقانونية ، ولذلك يجب على المجتمع ألا يتدخل في شؤون الفرد ، لأن هذا التدخل يقتل في الفرد اعتماده على نفسه ويجنى على استعداده الطبيعي ويضعف من شخصيته ويحدد من امكانياته نحو التطور .

أما عدم التدخل فإنه يمكن الفرد من تقوية صفاته الشخصية وتنمية ملكاته ويزوده بالوسائل التي عن طريقها يصل الى اسمر درجات الحضارة

هذا هو خلاصة المذهب الفردي الذي لخصه الفرنسيون في قولهم دعه يعمل دعه يمر *Saissez faive laissez passer* وقد حمل هنريك إبسن لواءه كما حمل لواءه من قبل آدم سميث وجون ستيوارت ميل . وحاول إبسن أن يحقق هذا المذهب في أكثر مسرحياته .

ومن يقرأ مسرحيته « بيت الدمية » يجد صراعا بين الفرد والمجتمع وبين المثالية والواقعية على حد تعبير برنارد شو في مقاله عن « النزعة الابسييتية » .

وخلاصة هذه المسرحية أن نورا زوجة « هلمر » مدير أحد المصارف استطاعت أن تزور سندا صغيرا باسم أبيها بعد وفاته بأيام لتستدين من موظف في المصرف مبلغا من المال حتى تمكن زوجها المريض من الذهاب الى إيطاليا للاستشفاء ولم تشأ (نورا) أن تخبر زوجها بهذا الدين حتى لا تثير في نفسه بواعث الضيق أو أسباب الألم وتتهيأ له رحلة سعيدة رغيدة كما لم تشأ نورا أن تخبر أباهما بشأن هذا الدين برغم انتحاليها لتوقيعه ، لأنه كان على فراش الموت ولا تريد أن تزيد فوق غصصه غصة أخرى .

ويشاء سوء الطالع أن يرتكب « كروجستاد » الموظف جريمة ما ، فيصمم هلمر مدير المصرف على فصله دون أن يحيط علما بشأن دين زوجته فيذهب كروجستاد الى نورا زوجة مدير المصرف ويتوصل اليها أن تتوسط لديه عند زوجها ولكن هلمر لا يريد أن يتزعزع عن رأيه أو يبغى عنه حولا ، حينئذ لا يجد كروجستاد وسيلة لانقاذه سوى التهديد والوعيد ، فيذهب الى نورا المسكينة مهددا متوعدا ولكنها لا تملك سوى الدموع تكثرفها من حلقها والحسرة تبعثها من أغوار نفسها وأعماق قلبها ، وعلى حين غرة يصمم كروجستاد أن يرسل الى زوجها خطا يخبئه بالحقيقة المريرة ويخبره أن نورا قد لجأت الى التزوير . . التزوير الذي لاشك سيسلمها الى السجن ويهوى بسمة البيت الى الحضيض ، ويجعل سيرة بيت هلمر مضغفة في الأفواه وحديثا على الشفاه .

وفي انتفاضة الغريق بين اليم ورجفة الطير الذبيح يرسل كروجستاد الخطاب

المشتوم الى هلمر . ولا يطالع هلمر الخطاب حتى تبدو امارات الغضب على وجهه وتنبجلى علامم الضجر والحدق وينتجر كالبركان الثائر فى وجه زوجه وينقلب من الزوج المدلل لزوجته الى نمر مفترس يوشك أن ينقض على فريسته وطفق يوجه الى زوجته أقذع الوان السباب لانها خرجت عن طريق الحق وجادة الصواب وحطمت تقاليد المجتمع الموروثة منذ الأزل .

حقا لقد زورت نورا من أجله واستدانت المال من أجله ، ولكن هذا يعد بالنسبة اليه أمرا حقيرا ، لانها حطمت المثل العليا وهوت بالقيم الاخلاقية الرفيعة ، وانحدرت بها الى الحضيض .

ولم تستطع نورا قبل زوجها الا أن تغضب وتصمم على ترك المنزل . وهنا يظهر كروجستاد ويطلب من هلمر ان يعد الآن منتهيا وانه لن يبلغ النيباة ولن يطلب التحقيق . فتهنأ نفس هلمر ويثوب الى رشده ويرجع الى وعيه ويصبح مرة أخرى هادئا رزينا ، ويطلب من زوجته أن تظل فى البيت لان المجتمع لن يعلم عن هذه الجريمة شيئا . غير أن نورا المعتزة براءتها المتمسكة بكرامتها لا تقبل مساومة فى الرأى وتصمم على ترك المنزل مهما تكن النتائج وينسدل الستار الفصل الأخير من المسرحية على هذا المنظر الأليم .

وقد ثار نقاد المسرح على هذه الحادثة وعدوا فى هذه المسرحية خروجا الى العصيان ودفعوا للزوجات للخروج على طاعة أزواجهن ، غير أن أبسن بهذه الخاتمة أراد أن يبين مساوىء المثالية ومحاسن الواقعية وينصر المذهب الحر الذى كانت بطلته نورا وحاملة لوائه .

لقد عملت ماراث أنه الصواب غير أن تقاليد المجتمع متمثلة فى زوجها وقفت فى وجهها حجر عثرة . فلم تجد بدا من هجر زوجها كمنها تهجر المقرورة المدفأة لان فحمها قد احترق وحرارتها قد خملت . على حد تعبير بريان برونز فى كتابه Sit plays by Ibsen عن ست مسرحيات لأبسن .

واستخلص بعض النقاد الآخرين من هذه المسرحية ومسرحيات أخرى مشابهة أن أبسن من الدعوة الى تحرير المرأة وتخليصها من عبودية الرجل كما يزعمون ، ولكن الواقع أن أبسن لم يكن من أصحاب هذه الدعوة بطريق مباشر فى يوم ما . ولم يكن من الكتاب المتحمسين لقضية المرأة فى وقت ما انما كل ما فى الأمر أن أبسن كان يعتقد اعتقادا جازما أن المرأة أقدر من الرجل على اتخاذ المذهب الفردى والدعوة اليه ، والمرأة لاتجد حرجا فى التحرر من قيود التقاليد وأصفاة المجتمع . بل أنها بحكم أنوثتها تستطيع أن تبتدع فى أزيائها ماشاء لها الابتداع وتغير فى نظامها ماشاء لها التغيير على النقيض من الرجل الذى يحافظ على التقاليد ويرعى حرمة المجتمع ، فلهاذا السبب كان أكثر المدافعين عن منهبه الحر نساء فى مسرحياته .

ومن هنا استخلص النقاد أن أبسن من أنصار تحرير المرأة . وغير خاف أن مسرحيات أبسن قامت بدور كبير فى الدعوة الى حرية المرأة وترجمت الى لغات العالم كافة ومثلت على جميع المسارح الاوربية والامريكية

وقد ساعد على رواج مسرحيات أبسن أن المرأة في مختلف البلاد أخذت تطالب
بالتحرير في ذلك الوقت . وهبت الكاتبة النرويجية (أستا هنشتين)
تدعو بحرارة زائلة الى تحرير المرأة وتتخذ من مأساة سيده سويدية مع
طالب نرويجي مخادع عبيرة وعظة ودافعا الى تحرير المرأة .

تلك نبذة وجيزة عن هنريك ابسن رائد المسرح الحر في أوروبا ،
ومهما وجه الى مسرحياته كثير من الانتقادات فانه أصبح صاحب مدرسة
حرة في المسرح الحديث بلا منازع ، ولسنا بصدد بيان نصيب مسرحياته
من الصواب أو الخطأ ومن الحق أن الخطأ انما يصدد تسجيل أثر صاحب
مدرسة مسرحية اقتحم انتاجه الفنى مختلفه الاقطار والامصار وسار
عبر البحار !

تم الكتاب



١٥٧ شارع عبيد - روض الفرج

٤١٠١٢ - ٤٠٧٥٣

تليفون

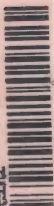
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨٨

مطابغ الدار القومية

١٥٧ شارع عبّيد - روض الفرج

تليفون { ٤٠٧٥٣ - ٤١٠١٤
٤٠٨١٤ - ٤٠٥٨٨ }

Bibliotheca Alexandrina



0408216